اليسوعيون

في الشرق الأدنى والعالم

دار النهار للنشر ش.م.ل
بيروت لبنان

أعد هذا الكتاب باشراف لجنة من كبار اليسوعيين . شكر خاص للسادة الرئيس فؤاد افرام البستاني وميشال ابو جوده وانطوان مدور لاسهامهم في تحقيق هذا الكتاب . وكذلك شكر للسيد مكرم عطية ومكتب الترجمة والنشر لشؤون البترول .

دار النهار للنشر ش.م.ل.
بيروت ١٩٧١

المحتويات

اليسوعيّون في زمن المجادلة

الكنيسة مصابة بالحمى وحرارتها ترتفع من يوم الى يوم ، ويكفي للتدليل على ذلك ان نلقي نظرة على عناوين الكتب المعروضة في الواجهات او المطبوعة على غلافات بعض المجلات وهي عناوين مختلفة تراوح بين « عاصفة تهب على الكنيسة » او « كنيسة في حالة خطيئة مميتة » او « موت الكنيسة » وبين « انحلال الكثلكة » . وبذلك اصبحت الازمة التي تجتازها الكنيسة مورداً رئيسياً لدور النشر وموضوعاً يومياً من موضوعات الصحافة الغربية .

بالأمس عندما كان البابا يتكلّم كانت الكنيسة من كبيرها الى صغيرها تنحني طاعة بموجب قاعدة قاطعة صيغت في قول مأثور : « لقد قالت روما كلمتها وانتهى النقاش » . اما اليوم فعندما يتكلّم البابا يبدأ النقاش وينطلق الجدال في مختلف ارجاء الكثلكة . ففي السنة الماضية استخدم الحرس البابوي العنف لاخراج المتظاهرين من احد معابد كاتدرائية القديس بطرس في روما وقد جاؤوا يحتجون على استقبال الرئيس نيكسون في الفاتيكان ، وذلك بقراءة رسالة القديس يعقوب ضد الاغنياء . وفي أثناء سيامة الكاردينال دانيلو اسقفاً فخرياً على تاورمينا (صقليّة) وزع على الحاضرين عدد كبير من المناشير وردت فيها الاسئلة التالية : « انت اسقف على من ؟ وبفعل اي اختيار ؟ واي شعب انتخبك ؟ » . اما في واشنطن فقد غادر مئات من المصلين الكنيسة

الكاتدرائية وسط القداس عندما ذكّرهم الكاردينال اوبويل بان واجب طاعة البابا يقتضي الخضوع للمنشور البابوي.

ومن هذه الزاوية ذهب بعض الكهنة الى التساؤل بقولهم : « لماذا تصدر هذه المناشير دوماً من فوق ؟ لماذا لا تصدر يوماً ما من القاعدة ؟ »

انهم لم يصلوا بعد الى هذا الحد . ولكن يبدو انه قد اصبح امراً اعتيادياً توجيه كتب مفتوحة الى البابا ورسائل جماعية الى الاساقفة . والواقع ان الاساقفة انفسهم يتململون . فهناك كاردينال بلجيكي قد انتقد المركزية الرومانية وهناك رئيس اساقفة لبناني قد شبه مجمع الكنائس الشرقية « بوزارة المستعمرات » ، كما ان عدداً من الاساقفة قد استقالوا وكذلك عدد من رؤساء الرهبنات .

اما اللاهوتيون فليسوا بعيدين عما يجري . والواقع انهم اذا كانوا يثيرون ضجة اقل من غيرهم فانهم ، في معظم الاحيان يسيرون في الطليعة. وقد قام البابا بتأنيب فئة اللاهوتيين « الذين يسمحون لانفسهم بالتعبير عن آراء شخصية يسبغون عليها من السلطة ما يفكرونه على الذي (البابا) يتمتع ، وفق حق الهي ، بتلك النعمة الرهيبة التي تجري المحافظة عليها بكل عناية » .

واما الكهنة المستقيلون والرهبان المتخلفون عن حياة الرهبنة فلم يعد احد يحصيهم لكثرة عددهم ، وذلك بعكس الشبان الذين باتوا يدخلون الاديرة او معاهد اللاهوت باعداد قليلة نظراً لتضاؤل الدعوات الدينية .

صلابة ومرونة

ان البابا بولس السادس يشعر بألم كبير بسبب هذه المأساة ، ويقول البعض انه شديد القلق. فهو قد ندّد « بالاتجاهات الانشقاقية » وذهب الى حد التحدث عن « نزعة تدمير ذاتي » . وعندما يظهر على شاشة التلفزيون يدرك الناس انه قلق ومتوتر وهو شديد الاسف لانه لا يسعه سوى ان يرفع يديه الى السماء . وقد قال بهذا الصدد : « اننا

ونحن على سفينة الكنيسة الروحية نشعر بالعاصفة تلفنا وتنقض علينا » .

وعندما تكون السفينة على وشك الغرق او عندما يحترق البيت تتجه الانظار كلها نحو رجال الانقاذ او الاطفاء . وفي العاصفة التي تهز الكثلكة اليوم لا مناص لاي انسان من التفكير باليسوعيين مهما كان اطلاعه على تاريخ الكنيسة ضئيلا . فالكل يذكرون الازمة الهائلة التي كادت تقضي على الكنيسة في القرن السادس عشر والدور الرئيسي الذي مثله اليسوعيون عندما قذفوا بأنفسهم في اتون المعركة . والكل يذكرون المعارك التي يخوضونها منذ اربعة قرون لمجد الله الاعظم ولتدعيم البابوية . وذلك بوسائل تعتبرها الاساطير الشائعة واحياناً الوقائع وسائل خاضعة للشك . والمعلوم ان اليسوعيين ، بالاضافة الى نذورهم الثلاثة بالطاعة والفقر والعفة ، يقدمون نذراً خاصاً بطاعة البابا ، مما يجعلهم تحت تصرف الكرسي الرسولي التام . والمعلوم ايضاً ان لرئيسهم العام اسماً شائعاً هو « البابا الاسود » ، وان مركزه في بورغو سانتو سبيريتو لا يبعد سوى ٢٠٠ متر عن مقر البابا نفسه ، وان الاباء اليسوعيين البالغ عددهم حوالي ٣٣ الفاً والخاضعين لسلطته مشهورون بأنهم على صلابة الحجر في طاعتهم وعلى مرونة القصب في عملهم . ويقول الكثيرون ان هذه المرونة وتلك الطاعة يجب الاستفادة منهما على وجه افضل من اي وقت مضى في كنيسة يتحتم عليها الاحتفاظ بسلطتها دون ان تنغلق على النقاش والمحاجة. واذا كان الامر كذلك فماذا يفعل الآباء اليسوعيون في عام ١٩٧٠ ؟ لا بد للاجابة على هذا السؤال والتكهن بالمستقبل من القاء نظرة على الماضي .

الطريق المؤدية الى روما

« ان المنحرف اينيغو دو اوناز دو ليولا هو جريء ومتكبر . انه يلبس رداء من الجلد ويحمل سيفاً ومسدساً ، وهو ماكر وفظ ومحب للانتقام ... » بهذه الكلمات وصف القاضي الاول لمدينة بامبلون الرجل

الذي قيض له فيما بعد ان يؤسس رهبانية اليسوعيين ، وكان ذلك في عام ١٥١٥ . ويضيف القاضي بقوله : « ان الجرم فظيع لانه ارتكب في الليل وبمكر ووقاحة » . والواقع ان احدا لم يعرف نوع ذلك الجرم الفظيع المرتكب في اثناء ليالي الكرنفال المرحة . ولكن التسليم بصحة تقرير الشرطة يدعو الى الاعتقاد بان اينياس دو ليولا لم يكن له اي استعداد خاص للقداسة . وهكذا كان على رجال البوليس بالاحرى ان يتنبأوا بالسجن او بالمقصلة عوضاً عن هالة القداسة .

وهذا يدل ، من زاوية اخرى ، على انه لا يجب الحكم في شخص بالاستناد الى سوابقه ، كما يدل على ان طرق العناية الالهية هي احيانا طرق ملتوية . ذلك ان العناية الالهية كانت ساهرة حينذاك وقد اظهرت نفسها في ٢١ ايار عام ١٥٢١ بوساطة مدفعي فرنسي صوب مدفعه الى قلعة بامبلون حيث كان دون انيكو يقاوم منذ ستة ايام جيش الكونت دو فوا ، وذلك على رأس فرقة صغيرة من حاملي البواريد . وانطلقت كرة المدفع الحديدية . ولعل العناية الالهية قد بدلت مجراها فسقطت على اقدام « ليولا » وحطمت رجلي الفارس « الجريء المتكبر » فلم يعد بامكانه لا الاشتراك في الحرب ولا الاسترسال في المجون . لقد كان الغبار الذي ارتفع نحو السماء على شكل غيمة رمزاً للهالة التي كانت ستتوج رأس القديس .

وبعد هذه الاصابة اجريت لاغناطيوس عملية جراحية على يد بعض الهواة . ولما نزع الضماد الذي كان يلف رجله اليسرى برزت القصبة الكبرى تحت الركبة اذ كانت ملحومة بشكل سيء . واذا باغناطيوس يأمر بنشر العظم متحملا الآلام المبرحة دون ان ينبس ببنت شفة . ولكن الساق المنشورة اصبحت اقصر من الأخرى . وبما ان اغناطيوس كان مزمعا على البقاء في الجيش وبما ان ساقي الجندي يجب ان تكونا متساويتين فقد امر بان تصنع له قطعة من الحديد ليطيل بها الساق المبتورة . ولكن هذا سبب له آلاما لا تطاق . واصبح بنتيجة ذلك رجلا أعرج ، مما حتم عليه العزوف عن مهنة السلاح .

سبب بسيط ذو نتائج ضخمة

وكان ان انزوى الفارس المغوار في قصر ليولا حيث شرع يقتل الوقت بالقراءة . بدأ بقراءة قصص الفرسان ثم قرأ حياة القديس دومينيك وحياة القديس فرنسيس فشعر نتيجة ذلك بحماس شديد . وبما ان العاهة التي اصيب بها دون انيكو حجبت عنه مجد السلاح فقد قرر ذات يوم ان يطلب مجد الكنيسة ، وذلك بعملية ارتداد روحي نادرة المثال . واذا به ، بعد سنة من ذلك ، في مغارة في ضواحي مانريز في مقاطعة « كاتالونيا » حيث كان يجثو ليلا نهاراً وهو مزمع على القيام باصعب المهمات ، مهمة السيطرة على الذات . ويقول ليولا عن نفسه : « وكان الحاج يلحظ في نفسه شؤوناً وشؤوناً ولما ادرك ان في ذلك فائدة ممكنة للآخرين ازمع على الكتابة » . وهكذا اصبح الكتاب الصغير الذي دبجه انياس دي ليولا بعنوان « تمارين روحية » رفيقه الدائم بل افعل كتاب من نوعه عرفته الكنيسة .

وبسبب الصوم وتمارين قهر الذات التي كان يقوم بها ضعفت صحته ومرض . فتأمل في مرضه وادرك ان الله لم يختره ليكون ناسكاً فأقدم على قص شعره وذقنه واظافره واستأنف اكل اللحم وعاد الى العالم . والواقع انه عاد الى المدرسة . وكان ان تعلم اغناطيوس فقه اللغة وهو في الثالثة والثلاثين ثم بدأ دراسة الآداب واللاهوت وهو في الخامسة والثلاثين. وما ان بلغ الاربعين حتى كان يحضر شهادة الدكتوراه في باريس. وفي الثالثة والاربعين صعد الطالب الاعرج الى هضبة مونمارتر وقام مع ستة من رفاقه بتقديم النذر الثلاثي باتباع الفقر الانجيلي والتقيد بالعفة التامة وبالذهاب الى القدس لتبشير غير المؤمنين وهديهم الى المسيحية . ولكن اغناطيوس ورفاقه قالوا حينذاك ، بنوع من الحدس العبقري او الفائق الطبيعة ، انه اذا تعذر عليهم الوصول الى الارض المقدسة فانهم سيتوجهون الى روما ليضعوا انفسهم تحت تصرف البابا التام . والواقع ان البابا كان يحتاجهم اكثر مما قد يحتاجهم غير المؤمنين .

ففي الوقت الذي كان اغناطيوس يحارب في بامبلون كان مارتن لوثر يلقي في النار البراءة البابوية القاضية بحرمه . وبعد ان التهمت النار براءة البابا اخذت تنتشر فـي جميع ارجاء المانيا لتؤدي الى انتصار البروتستانتية . وبعد سنوات قليلة وجد ملك انكلترا هنري الثامن ان « آن بولين » الرقيقة هي اجمل من الملكة الحاكمة فقرر الطلاق من هذه . وبعد ان حرمه البابا بسبب ذلك اقدم على اعلان نفسه رئيساً اعلى واوحد للكنيسة البريطانية . وهكذا بعد ان وجد بابا في « فيتنبرغ » وآخر في لندن وآخر في جنيف وهو « كالفن » الذي كان ينتظر يومه اصبح من الضروري جداً القيام بنجدة الحبر الروماني .

وهكذا نجد ، بالرغم من رأي باسكال الذي كان يزدري اليسوعيين ان الكرة الحديدية التي ادت الى اهتداء اغناطيوس ووضعه على درب المغامرة الروحية يمكن تصنيفها في لائحة الاسباب الصغيرة ذات النتائج التاريخية الضخمة، وذلك اسوة بأنف كليوباترا او بالحصاة الصغيرة التي سدت كلية كرومويل . ذلك ان تغلب البروتستانتيّة على الكثلكة كان امراً محتملا لولا الاعمال التي قام بها اينياس دو ليولا ورهبانية اليسوعيين .

سمعة سيئة

ليست الادارة الالهية متشددة كالادارة البشرية . فهي لا تطلب سجلاً عدلياً من المرشحين للتطويب ، والدليل ان سمعة اغناطيوس السيئة لم تمنعه من بلوغ القداسة . ومقابل ذلك نجد ان مثل القداسة الاعلى الذي يحرك ارادة اليسوعيين لم يمنعهم من الحصول على سمعة سيئة جداً .

ففي عام ١٥٩٤ نجد برلمان باريس يبدأ محاكمة الرهبانية بقوله : « اننا نعلن كهنة رهبانية اليسوعيين يفسدون الشباب ويعكّرون الراحة العامة وانهم اعداء للدولة وللتاج الفرنسي » . وتوالت الاتهامات ضدهم جيلا بعد جيل . فقال فيهم « دالمبير » « ان هؤلاء الناس قد ارتكبوا

كل انواع الجرائم وعلموا مختلف التعاليم المشوهة » . وقال فيهم نابليون : « حيث يوجد اليسوعيون نجدهم يطلبون السلطة بأي ثمن . ان جمعيتهم تنزع بطبيعتها الى السيطرة ولذلك فهي العدو اللدود لكل ما هو سلطة » . وقال فيهم ميشليه « انهم ليسوا بشراً بل آلات » ، كما ان ادغار كينيه وصمهم بأنهم « فريسيو المسيحية » . اخيراً نجد ان قاموس « لاروس » يوافق على أقوال شهود الاتهام بان يضيف الى المعنى الاول والحرفي لكلمة يسوعي معنى محقراً جعل هذه الكلمة تدخل لائحة الشتائم المستخدمة في اوساط المجتمع العليا . وهكذا يقول القاموس الفرنسي الشهير عن كلمة « يسوعي » انها تعني ايضاً شخصاً داهية ومرائياً . وهذا ما نجده ايضاً في لغات اخرى كالانكليزية والالمانية والهولندية .

ومع ذلك نجد في جهة الدفاع رجلاً عظيماً يقول : « ماذا شاهدت في خلال السنوات السبع التي عشتها في دار اليسوعيين ؟ حياة كلها نشاط وزهد وتنظيم . فقد كان وقتهم كله موزعاً بين ما يقدمونه لنا من عناية وما يقومون به من تمارين تقتضيها مهنتهم القاسية ... واني لاجروء على القول بأنه من منتهى التناقض والظلم والعيب اتهام هؤلاء الاشخاص بالانحلال الاخلاقي ، في حين انهم يعيشون في اوروبا حياة كلها شظف وانهم يقصدون اطراف آسيا واميركا طلباً للموت » . واذا علمنا ان هذا المحامي المتحمس ما هو الا فولتير ادركنا ان المسألة تتطلب مزيداً من المعلومات .

تجديد روح الكثلكة

هكذا نجد ان الرهبان اليسوعيين قد اثاروا في خلال تاريخهم الطويل مزيجاً من الحماس والكره . والطريف اننا نجد بين مهاجميهم رجلا صوفيا كباسكال وبين المدافعين عنهم رجلاً كافراً كفولتير . اما رجل الشارع فلا يدري ما اذا كان اليسوعيون ينتمون الى رهبانية ام الى جمعية سرية ، اي ، بمعنى آخر ، ما اذا كانت القوة المحركة اياهم

هي التعصب ام الطموح . والحقيقة ان محبة الله كانت دوما محرك اعمالهم . اما سبب نشوء الاسطورة حولهم انهم في بعض الاحيان قد مزجوا ذلك المحرك بشيء من ارادة القوة او التخفي .

وعندما بدأ اليسوعيون عملهم حوالي منتصف القرن السادس عشر كانت الحركة الاصلاحية تقسم اوروبا وتهدد باغراقها . وكانت قد انتصرت في انكلترا والسويد والدانمرك وهولندا ، في الوقت الذي كانت تهدد فيه المانيا وبولونيا وهنغاريا وسويسرا . هذا مع العلم انها لم تبتعد عن اسبانيا الا لان محاكم التفتيش قد حاربتها بصورة وقائية شديدة وبمختلف وسائل التنكيل .

وكان ان تولى اغناطيوس تنظيم الهجوم المعاكس . وبفضله اصبح تحت تصرف البابا جيش متحرك يحارب افراده حيثما يجب . فأخذ بعض اليسوعيين يعيدون المنشقين عن طريق الوعظ والتعليم الديني ، كما اخذ غيرهم يعلّمون تمارين اغناطيوس الروحية ، محققين نتائج باهرة ومالئين اديرة الرهبانية بآلاف من المبتدئين . كذلك شرع آخرون اوفر مرونة من غيرهم بالتقرب من العظماء والملوك واسداء النصح اليهم . فالملك كان يدير شؤون المملكة ، واليسوعي كان يرشد الملك . اذا كان اليسوعي ... وهذا ما يفسر النكتة التي عمت باريس عندما اصبح الاب « قطن » معرفاً للملك هنري الرابع إذ كان الناس يقولون : « لقد وضع الملك قطناً في اذنيه » . ولكن كان على اليسوعيين ، من جهة اخرى ، ان يمهدوا طريق المستقبل فأقدموا على فتح المدارس وتربية افراد من النخبة ، ومن تلامذتهم من اصبح وزيراً او دبلوماسياً او ضابطاً او كاتباً .

وهكذا تمّ ايقاف الحركة الاصلاحية . وليس من النافل ابراز ما في الوسائل المستخدمة من صبغة بناءة . اذ انه ، لم تستخدم حتى ذلك الحين اية وسيلة سلبية او جدالية ، اي ان القول الشائع بان رهبانية اليسوعيين قد اسست للقضاء على الهرطقة قول غير صحيح . فان ما كان يقصده اغناطيوس بالفعل هو تجديد روح الكثلكة واعادة الكنيسة الى

قوتها باعادة بناء تنظيماتها ومحتوياتها . ومن الخطأ ايضاً الاستسلام للاعتقاد الشائع الذي يربط بين اليسوعيين ومحاكم التفتيش . فاليسوعيون قد بقوا بعيدين عنها ، مع العلم ان الذي كان ضحية التفتيش والسجن هو اغناطيوس نفسه ، وذلك في الاشهر الاولى من ارتداده . ومن جهة اخرى يجدر التنويه بان القديس بطرس كانيسيوس اليسوعي هو الذي اوجد في القرن السادس عشر عبارة « اخوتنا المنفصلون » التي يستخدمها اليوم الكاثوليكيون المؤمنون بالحركة المسكونية لتسمية اخوتهم البروتستانت .

اول جمهورية شعبية

وفي ذلك الحين كانت اوروبا القديمة تنهار تنظيماتها وكان عهد الرحلات البحرية الكبيرة قد بدأ وكان الآباء اليسوعيون يرافقون الفاتحين الجدد ويضمون الى المسيحية اقواماً جديدة في آسيا واميركا . وهكذا اصبحت رسالة التبشير الهدف الرئيسي لاعمالهم .

كان القديس فرنسيس اول المبشرين فانتقل من لشبونة الى اليابان مروراً بالهند ، وكان مروره في عالم التبشير كمرور الشهاب وقد ترك وراءه خطاً مضيئاً بالمحبة . وكان هذا القديس يهدي الى المسيحية جموعاً غفيرة وكان يعمّد دون هوادة وقد قال بهذا الصدد : « كثيراً ما تتعب يداي بسبب ذلك » . وتشير احصاءات ذلك العصر الى ان القديس فرنسيس قد بشر بالانجيل سبعين الفاً من عباد الاوثان وهو في الواقع من اعظم رجال رهبانية اليسوعيين .

لنقفز الآن مئة سنة الى الامام ولنذهب الى قارة اخرى لنستقر في ضيعة كبيرة حيث الشوارع مستقيمة ومخططة بصورة هندسية ، وحيث المنازل على شكل مربعات منتظمة تحيط بها البساتين . اننا نجد في وسط الضيعة المدرسة والمكتبة والمشاغل والمخازن والصيدلية والمستشفى ... والسجن . ونجد ان للضيعة اربعة ابواب تؤدي الى الريف ، وان هناك

حقولاً واسعة ، مستطيلة ، مزروعة بالقمح والذرة والبازلاء والفاصوليا . اما المنزل والبستان فهما من الممتلكات الفردية . واما الحقول المزروعة المستثمرة جماعياً فهي ملك الجميع . والروس الذين يظنون انهم قد اخترعوا هذا النوع من التنظيم الاجتماعي يسمونه كولكوز .

ولكن ماذا يفعل اليسوعيون في هذا الكولكوز ؟ انهم يتولون ادارته. فالرئيس يسوعي ، وكذلك اعضاء المكتب ومعلم المدرسة والقاضي والطبيب . اما افراد الكولكوز فهم من الهنود الغوارانيين . ونحن ما زلنا في القرن السابع عشر في تلك الدولة الغريبة التي سماها احد الاشتراكيين النظريين « جمهورية الباراغوي المسيحية الشيوعية » . واما الكولكوز نفسه فقد دعي « الصورة المصغّرة » . والواقع ان الكنيسة الرائعة القائمة في وسط القرية الكبيرة لا تترك اي مجال للشك.

وكانت الحياة في تلك « الصور المصغّرة » مصبوغة بالموسيقى . ففي الصباح كانت الاجراس تدعو السكان الى حضور القداس الالهي ، وكان المصلون ينشدون التراتيم . وبعد ذلك كانت احدى الجوقات تسير بالعمال نحو الحقول حيث كانت اعمال الفلاحة والزرع والحصاد تتم على انغام الموسيقى . وفي المساء كان العمال يعودون الى القرية للاستماع الى دروس التعليم المسيحي وتلاوة صلوات المسبحة الوردية . وهكذا كان الهنود يعيشون حياة هانئة خالية من الهموم . وكانوا لا يقبضون مالاً بل كانت الجماعة التي ينتمون اليها تضمن لهم المسكن ومختلف مواد الاستهلاك . اما المرضى والشيوخ والارامل واليتامى فكانوا يعيشون على حساب الجميع . وهكذا نجد ان الآباء اليسوعيين قد ابتدعوا الضمان الاجتماعي منذ ثلاثة قرون .

ومن دواعي الاسف ان تلك الجمهورية المؤسسة على حقوق الهنود الغوارانيين الطبيعية كانت تحدياً للمستعمرين المتاجرين بالرقيق الذين كانوا يحصلون من هذه التجارة على معظم مداخيلهم . وقد قام هؤلاء المستعمرون بجهود حثيثة فجعلوا ملك اسبانيا يصدر مرسوماً يأمر فيه اليسوعيين بالرحيل وترك كل شيء في مكانه . واثر ذلك قامت القوات

المسلحة باحتلال القرى النموذجية فقتل من الهنود من قتل وهرب الباقون ولجأوا الى الغابات .

ونجد اليوم ان ليس هناك اجماع على اعجاب فولتير بيسوعيي باراغواي . فالبعض يلومونهم بانهم تصرفوا بصورة ابوية وانهم فرضوا حضارتهم على الهنود الغوارانيين دون ان يلحظوا وجود حضارة محلية. هذا صحيح ولكن علم الاجتماع وعلم الاقوام والماركسية — اللينينية لم تكن معروفة حينذاك . والبعض الآخر يلومونهم بانهم عاملوا الهنود كأطفال غير مسؤولين وانهم قد اهملوا اعداد المسؤولين المحليين بحيث انهار كل شيء عند رحيلهم . والمؤسف ان هذا صحيح ايضاً . ولكن ثمة واقع ايضاً وهو انهم ، طيلة مئة وخمسين سنة ، قد حموا الهنود من استغلال المستعمرين الجشع وتمكنوا بذلك من حفظ كيان الشعب الهندي. ونجد اليوم ان الباراغواي هي الدولة الوحيدة في اميركا اللاتينية التي تقر لغة رسمية محلية الى جانب الاسبانية ، وهي لغة الغوراني .

وفق مقتضيات الرسالة

ان النجاحات المدهشة التي حققها اليسوعيون تعود في الواقع الى مرونة وتنوع طرائقهم المتلائمة دوماً مع الزمان والمكان .

فعندما وصل الاب نوبيلي الى الهند الجنوبية في بدء القرن السابع عشر وجد ان جميع المسيحيين هناك ينتمون الى الطبقات الدنيا ، وان الحواجز الطبقية القائمة تمنع انتشار بشارة الانجيل . عندئذ قرر الاب نوبيلي وضع الامور في نصابها وعزم على كسب افراد الطبقات العليا تاركاً لزملائه مهمة تبشير المنبوذين . فحلق رأسه وصبغ جبهته ووضع قرطين في اذنيه ولبس رداء من الشاش الاحمر . وبعد ان اثبت بان الرداء المناسب يجعل الانسان من طائفة البرهمانيين انزوى في كوخ ليعيش فيه وحيداً ومتفرغاً للصلاة .

وكان ان قصده البرهمانيون وقد دبّ الفضول في ذهنهم . فقدم

نفسه اليهم باسم البرهمان الروماني تاتوفا — بودابار — سوامي ، اي «الاستاذ في الكمالات الستة والتسعين التي يتحلى بها الحكيم الحقيقي» . وتآخى الجانبان وقام الاب نوبيلي بعد بضع سنوات بفتح مدرسة واخذ يبشر البرهمانيين بكلمة الانجيل . وهكذا تمكن ، بصورة غير مباشرة ، من هدي افراد الطبقات الدنيا بعد ان تأثروا بمن اهتدى من افراد النخبة .

وفي الصين نجد الاب ريتشي يقدم للامبراطور ساعة كبيرة دقاقة . وبعد ان دهش الامبراطور من «ذاك الجرس الذي يدق من تلقاء ذاته» استقبل اليسوعي في بلاطه . وهكذا تمكنت المسيحية من التمركز في بكين بمساعدة الرياضيات وعلم الخرائط وفن صناعة الساعات . كذلك دخلت المسيحية بلاد التيبيت بفضل الاب انطونيو دي اندراديه الذي اجتاز جبال الهملايا على ارتفاع يفوق خمسة الاف متر وليس لديه سوى مسبحته الوردية .

ولم يكتف اليسوعيون ، وفق مقتضيات رسالتهم ، بالتحول الى برهمانيين وموظفين كبار في الصين والى يوغيين ومتسلقي جبال بل انهم قد اشتهروا ايضاً في مختلف ميادين العلوم والفنون ، كما ان عدداً كبيراً منهم قد اظهر براعة في حقل المخترعات التطبيقية الصغيرة . فمنهم مثلا من رئس مجلس الرياضيات الامبراطوري في الصين ، ومنهم من درس طوبوغرافية القمر ، ومنهم من اكتشف توابع لكوكب زحل ، كما ان آخرين منهم اخترعوا الفانوس السحري والانبوب الصوتي وطيروا منطاداً قبل منغولفيه بكثير وادخلوا الى اوروبا اسرار صنع الاواني الصينية واستخدام الشماسي والكانكينا والفانيلا والكاميليا .

اما في الغرب فنجد ان اليسوعيين كانوا دوماً من الوعّاظ واللاهوتيين ومستشاري الملوك . وفي حقل عملهم التربوي نجدهم قد انتجوا رجالاً عظاماً امثال كورناي وموليار وكولبير وكونديه وتيرغو وفوش وليوتيه وسانت ايكزوبري الذي يحتفظ معهد «لومان» بفروضه في الانشاء . كذلك نجد ان الدبلوماسية قد افسحت لهم المجال بابراز مواهبهم الكثيرة . مثال ذلك الاب بوسوفان الذي يمكن اعتباره قدوة للمختصين

بالمفاوضات الدولية . ذلك ان اي شخص آخر غير هذا اليسوعي المدهش ، الذي تولى عقد الصلح بين بولونيا وروسيا ، كان لا بد له من ان يتسمر خوفاً عند ولوجه بلاط القيصر ايفان الرهيب .

فالقيصر الكلي القدرة كان جالساً على عرشه البراق وعلى رأسه تاج مذهب وفي يده الصولجان وكان بصره النفاذ يخترق الراهب المتواضع الذي كان يتقدم صوبه . ولكن عظماء هذا الدهر ليسوا بغرباء عن اليسوعيين . فالاب بوسوفان صديق البابا وهو يلعب النرد مع امبراطور النمسا ويشاطر ملك بولونيا طعامه المفضل وهو لحم البقر المطبوخ بالثوم . ولقد تقدم صوب ايفان الرهيب بقدر من الثقة بالذات جعل القيصر يتأثر وينهض من عرشه ليستمع الى خطبته المليئة بالاعتزاز . ولكن هذا لم يؤد الى نجاح المفاوضات . فالروس كانوا يناقشون ببطء مثير للاعصاب مجادلين في ادق التفاصيل ومشاحنين دون هوادة . فاذا طرح عليهم سؤال غير منتظر كانوا ينهضون لاستشارة القيصر ويعودون بعد بضع ساعات وفي ايديهم قرطاس طوله متر وبعد ان يستمطروا رحمة الثالوث الاقدس ويعددوا القاب القيصر كانوا يقرأون بياناً ما هو الا رفض حشي بالتعليقات المختلفة .

ولما ادرك الاب بوسوفان ان ذلك الهذر ما هو الا خطة ترمي الى بثّ السأم في نفس الخصم عدّل خطته واخذ يجيب على التعليقات الطويلة بكلام من النوع نفسه ، معدداً بدوره القاب البابا الكثيرة بشكل مكنه من رد الصاع بالصاع . وكما كان متوقعاً فان الروس هم الذين نفد صبرهم . فأصروا على الوصول الى نتيجة سريعة وتمكن الراهب اليسوعي بين ليلة وضحاها من تحقيق جميع مطالبه . وبالاضافة الى ذلك اهداه القيصر برميل نبيذ وامر بوضعه في الزلاقة التي عادت بالراهب الى بولونيا .

روحانية وسياسة

ومما ساعد على خلق اسطورة اليسوعي «الداهية والدساس والساعي الى السيطرة» خطة اليسوعيين في النفاذ الى الاوساط المعادية لهم او المنغلقة

عليهم ، وحرصهم على ممارسة نفوذهم في اوساط التنمية وقدرتهم ومرونتهم في القيام باعمال لا حصر لتنوعها .

ان بعض الناس قد استغلوا وما زالوا يستغلون ضدهم كتيّباً هجائياً وهو بقلم جيروم زماروفزكي اليسوعي البولوني الذي طرد من الرهبانية عام ١٦١٠ والذي كتبه بدافع الانتقام. وحسب ما جاء في هذا الكتيب الهجائي من كلام اشبه بالهذيان فان رهبانية اليسوعيين يديرها «بعض الرجال المحتفظين باسرار مخيفة والمرتبطين بعضهم ببعض بانواع من القسم الرهيب» . اما « تعليماتهم السرية » فتنحصر في قاعدتين : ١) التضحية بكل شيء في سبيل مصالح الرهبانية الزمنية، اي التضحية بالله والبشر والروح والسماء . ٢) استخدام كل الوسائل الممكنة لبلوغ السيطرة على العالم .

وانطلاقاً من هذه الترهات لم يكن صعباً على القصصيين والمؤرخين الصغار ومروجي الاشاعات وصم اليسوعيين بسمعة سيئة . وهناك عدد كبير من حوادث الاغتيال او محاولة الاغتيال قد اتهم بها اليسوعيون ، ومنها هنري الرابع واليزابيت ملكة انكلترا وجوزيف الاول ملك البرتغال وغليوم دوراغ وغوستاف ادولف وابراهام لنكولن ، وغيرهم . وقد نسبت اليهم جرائم افظع . ففي ١٨٧٤ وقف بسمارك امام مجلس الرايشتاج واعتبر اليسوعيين مسؤولين عن حرب ١٨٧٠ ، زاعماً ان لديه ادلة على ذلك . ولكنه لم يقدم اي نوع من الادلة . وفي تموز ١٩١٤ قال جان جوريس عشية موته ، وهو يعلق امام زميله بودوس على الانذار النمساوي الى صربيا : «هذه احدى حُظيّات اليسوعيين» .

اتهامات هذيانية ؟ لا شك ، ولكن ليس من دخان بلا نار . فالاعمال الزمنية التي تقوم بها رهبانية اليسوعيين وانحدارها المتكرر من مستوى الروحانية الى مستوى السياسة قد دفعت الخصوم الى تخيّل امور كثيرة ضدها ، مع العلم ان هؤلاء الخصوم يذكرون بما قاله احد رؤساء اليسوعيين العام في القرن السادس عشر وهو الاب اكوافيفا الذي انب اليسوعيين بقوله : «انهم يتذرّعون بخلاص النفوس للتدخل بالشؤون

الداخلية . انهم يتسللون الى بلاطات الامراء والعظماء ولكن دوافعهم الفعلية هي حب ذواتهم وحب الاشياء التي في العالم» .

طردوهم ٥٦ مرة

ولتقديم جردة عادلة بنشاطات الرهبانية لا بد من التذكير بأن اليسوعيين قد مثلوا دوراً مهماً في «العصبة» او اتحاد الكاثوليك الفرنسيين في القرن السادس عشر ، وانهم كانوا ضالعين في المؤامرة التي اطاحت بالملك جاك الاول وبالوزراء والبرلمان البريطانيين ، وانهم قد طاردوا بشدة الينسانيين ، وانهم قد حولوا فرنسا في ايام الملك لويس الرابع عشر الى مركز لنشاطهم ، وانهم لم يكونوا غرباء عن نقض «مرسوم نانت» ، وانهم بدعمهم المثابر للعرش والمذبح معاً قد بقوا طول القرن التاسع عشر بجانب الرجعية والتعصب الديني .

لقد جرى طردهم ستاً وخمسين مرة من مختلف البلدان التي كانوا ينشطون فيها في الميادين الزمنية او الدينية . لقد طردهم ملوك ورؤساء جمهوريات ، كما طردهم بسمارك و «الاب الصغير» كومب . ومن سخرية القدر ان احد الباباوات قد اقدم على حل الرهبانية وهذا تدبير غريب يوازي حل الحرس الامبراطوري من قبل الامبراطور . وقد جاء في القرار الذي اصدره البابا اكليمنضوس الرابع عشر في ٢١ تموز ١٧٧٣ : «لقد تبين لنا ان رهبانية اليسوعيين لم تعد قادرة على انتاج الثمار الثمينة والحسنات الرائعة التي تأسست من اجلها ، وهي رهبانية حظيت برضى عدد كبير من الباباوات ونالت كثيراً من الامتيازات ... واستناداً الى هذه الاعتبارات والى اعتبارات اخرى تعود الى الفطنة والحكمة في ادارة الكنيسة كلها ... فاننا نعلن حلّ رهبانية اليسوعيين» .

فأين التجأ اليسوعيون بعد هذه الضربة القاضية ؟ الى بروسيا فردريك الثاني ، الملك البروتستانتي ، والى روسيا كاترين الثانية ، الامبراطورة المنشقة ، وقد كان كل منهما يقدّر طاقة اليسوعيين التعليمية .

ولكن غرق سفينة اليسوعيّين يقتضي اكثر من ست وخمسين عاصفة وما لبثت ان عادت الرهبانية الى نشاطها واخذت تعمل مجدداً في الحقلين الروحي والزمني ان كان ذلك بوحي الروح القدس او بوحي مطالب العالم . وقد لاحظ البعض وجود عدد كبير من اليسوعيين بين حاشية البابا بيوس الثاني عشر . وقال البعض الاخر ان للرهبانية ضلعاً في النجاح الذي لاقته الاحزاب السياسية المسيحية بعد عام ١٩٤٥ في كل من فرنسا والمانيا وايطاليا . وبكلمة اخرى فان الناس ما زالوا يفتشون عنهم في كل مكان .

وبالاضافة الى ذلك فاننا نجد اليسوعيين في لائحة الشهداء وقد لاقوا شتّى صنوف التعذيب على يد اقوام عدة كالهورون والايروكوا والاحباش والمدغشقريين . وفي بدء هذا القرن كان عدد شهداء الرهبانية تسعمئة وسبعة شهداء ثم ارتفع هذا العدد بضع عشرات في ايام النازية . فقد قطع رأس احد اليسوعيين بالبلطة وشنق اخر وذرّ رماد جثته في الهواء ، كما ان آخرين صعدوا الى السماء عن طريق معسكرات الاعتقال في بوكنفالد او داشو حيث لم تكن تؤدي مداخن الافران الى مكان آخر . ولكن هذه كلها تفاصيل بسيطة ولا يسع اليسوعيين ان يحقدوا على خصومهم الذين لا يأتون عادة على ذكرهم .

جثث وافرة الحياة

لقد صدر مؤخراً كتاب عجيب فيه مجموعة من الصور الملوّنة وقد ظهر فيه بالحجم الطبيعي منشار ومطرقة خشبية وشاكوش وأدوات اخرى ليست مبدئياً من الادوات الجذابة . ولكنها ، في الواقع ، اشياء ساحرة وقد قال عنها ميشيل كورنو في مجلة «لو نوفيل اوبسرفاتور» : «عندما ينظر المرء في هذا الكتاب الى مطرقة يشعر بانفعال فريد لا تحدثه في نفسه اية صورة اخرى . ان في ذلك حباً واخلاقاً وسياسة بالمعنى الكامل ». اما مؤلف الكتاب الذي يجعلنا ندرك بالعين وبالروح جوهر المطرقة

فيدعى بول فيلر . ومنذ عشرين سنة وهذه المطرقة تشكل مع يده وحدة لا تتجزأ . ذلك انه حداد ، بالاضافة الى انه يسوعيّ ، كما هو الكاردينال دانيلو والاب فان كلسدونك الذي كثيراً ما يبقى حتّى الرابعة صباحاً في المراقص او في علب الليل في امستردام وعلى سترته صليب معدني صغير والاب جوزيف توما الذي يلقي عظات الصوم في كاتدرائية نوتردام في باريس .

ذلك ان يسوعيّي عام ١٩٧٠ يشبهون يسوعيي القرن السادس عشر كما يشبه الابن اباه . وهم موجودون في كل مكان وبمختلف الاشكال والازياء . ففي باريس نجد الاب دوفال يعمل لمجد الله بالعزف على الغيتار وتأليف الاغاني . وفي لومان نجد الاب باريه عاملاً في احد المصانع . وفي المانيا نجد الاب ليبيش يتنقل بقافلته الاعلانية من مدينة الى اخرى ويخاطب الجموع في الساحات العامة . وفي مونريال نجد الاب اكين يعمل كسائق تاكسي . وفي اليابان نجد الاب هوفرز الالماني يؤلف مسرحية يابانية ويجعلها تمثل في مسرح كابوكي . ولتقدير هذا الانجاز قدر حقه لا بد من معرفة المسرح الياباني معرفة صحيحة . اما في الولايات المتحدة فنجد الاب مانيان ينحت ويرسم ويقوم بأبحاث حول «العقبة الفنية في ميدان النحت» . وفي مدينة دلفت في هولندا يقوم الاب كريكلبرغ بدراسة معضلات السير ويدعو الى تعديل قانون السير . وفي الصيف الماضي جمع الاب جاوين طلاباً من مدرسة العلوم السياسية وعمالاً من حيّ الابينيت في باريس وقاموا بجولة في بحر المانش والمحيط الاطلسي ... ولكن من الافضل ان نوقف هذا التعداد لان اليسوعيين هم اكثر من ثلاثة وثلاثين الفاً .

واذا تبعناهم واحداً واحداً وجدنا بعضهم في ميادين اخرى اكثر غرابة . فواحد منهم يعمل كمفتش لتعليم الفلسفة في جمهورية ثورية شعبها مسلم . وآخرون يعملون في المؤسسات الدولية كمنظمة الامم المتحدة ومكتب العمل الدولي ، كما ان عدداً منهم ما زال في السجون وراء الستار الحديدي او في بعض البلدان الافريقية .

حياة على مثال المسيح

هل يمكننا ، انطلاقاً من شخصيات واعمال على هذا القدر من التنوع ، ان نرسم صورة لليسوعي المعاصر دون ان نقع في نوع من الاسطورة او التشويه ؟ الافضل ان نحاول تعريف اليسوعي بالفضائل والخصائص التي تقتضيها منه الرهبانية .

ان اعداد الراهب اليسوعي يستغرق اربع عشرة سنة ، وليس من رهبانية او مهنة او حزب يتطلب مثل ذلك . والواقع ان تلقيه اعداداً كهذا يقتضي ذكاء حاداً وارادة حديدية ولا يمكن لعقل يتعب بسرعة او لارادة من النوع المتوسط ان يتحملا ما يجب تحمله . اما سرّ ذلك الاعداد فهو في كتاب «التمارين الروحية» ، وهو بحث في التروّض الصوفي وطريقة في التدرّب الروحاني توازي بالنسبة للجسم التمرين على حمل الاثقال .

ان هاوي الادب لا يمكنه ان يقرأ عشرين سطراً دون ان يتثاءب لكثرة ما تبدو لهجة الكتاب اصطناعية وجافة . ومع ذلك فان هذه الخلاصة الجافة لتجربة روحانية لاهبة هي التي تصنع نفس اليسوعي . فهو يتعلم كيف يتجرد من اهوائه وكيف يسيطر على اعصابه وكيف يعطل احساساته ويهدم ذاته ليعيد بناءها على مثال يسوع المسيح . انه يصبح في يد رئيسه «اشبه بجثة يمكن قلبها في جميع الاتجاهات او بعصى يستخدمها حاملها في كل مكان ولكل الغايات .» ان رهبانية اليسوعيين مبنية على هذه الصخرة من الطاعة .

اما اليوم فان مجرد التحدث «الانقياد كالجثة» يكفي لحمل اليسوعي على الابتسام ، خصوصاً اذا كان من الشباب . واذا عبّر عن افكاره بقوة ، وهذا ما يجري عادة ، فهو يقول لك ان لا مجال للتوقف عند تلك الصيغة الشهيرة وانها من تعابير القديس فرنسيس قبل ان يكتبها القديس اغناطيوس . ولذلك فالمرجو الكف عن تعبير الرهبانية بها . فنحن لسنا آلات والطاعة لا تخبلنا ولا تخنق ارادتنا الشخصية بل تحييها وتلهبها . اننا ،

بكل ما فينا من قوة ، نريد ما تريده الرهبانية واننا نجد في القمة ما نخسره في القاعدة .

نزعة الى التمويه

وثمة قول آخر يبيّن لنا كيف يرفض اليسوعي صورته المشوهة اذ يقول احدهم : «لقد نظر الناس الينا مدة طويلة على اننا عناصر متفوقة في صفوف رجال الكنيسة . واليوم عندما اتوجه الى مكان ما لاعظ فيه اجد الناس يقولون عنا نحن اليسوعيين : «باننا الاقوى وباننا علماء ومتنفذون ومتضامنون» ... فاذا لذت بالصمت اعتبروا ذلك اقراراً منّي واذا دافعت وكان الدفاع ناجحاً قالوا : «تباً لهؤلاء اليسوعيين . كم هم دهاة» ... والواقع ان احدى معضلاتنا هي ان نصحّح الصورة الخاطئة الموجودة عنا في اذهان الناس» .

ولكن في الرهبانية نزعة مستعصية الى التمويه . ففي مدينة ليون مثلا لا يعلم الا المطلعون بوجود دير ابتداء لليسوعيين . فهو يخفي غايته الرئيسية تحت اسم «اكليريكية ارساليات سوريا» ولا توجد على مدخله اية لوحة ، كما لا يوجد على رسائله او على غلافات الرسائل اي عنوان مطبوع . واذا فتشت في دليل الهاتف في باريس عن كلمتي «دومنيكان» او « فرنسيسكان » وجدت رقم الهاتف وعنوان كل من الديرين . ولكنك لن تجد كلمة «يسوعيين» لان لديرهم المشهور في شارع غرينيل اسماً آخر هو «مركز الارساليات» .

ان هذا التخفي كان معقولاً حين كانت القوانين تضطر اليسوعيين الى العمل في الخفاء ولكن ذلك لا تفسير له اليوم في مجتمع منفتح اكثر فأكثر على التخاطب بين البشر . وكما يقول بعض طلاّب اللاهوت الفرنسيين : «من يبشر بالانجيل لا يتخفّى» .

ومن بين الصور التي تعكسها الاسطورة عن اليسوعي صورة لا يقبلها على الاطلاق يسوعيو اليوم وهي ان ما يحرك الرهبانية هو روح

المؤامرة والسيطرة . انهم لا يمتعضون من كونهم قد ضعفوا مالياً بالنسبة الى الماضي ، بل يرون في عمليات الطرد والاستملاك وغيرها من التدابير الزمنية التي كانوا ضحية لها امراً خلاصياً مكنهم من العودة الى الخط الانجيلي . وثمة مفارقة يجري التعبير عنها احياناً كثيرة كما يلي : «ان قوة الرهبانية ليست في بهاء مؤسساتها بل في فقر اعضائها» .

ثلاثة وثلاثون الف دماغ

كثيراً ما صُور القديس اغناطيوس وهو منكب على خريطة العالم ليتبين النقاط الستراتيجية التي يجب ان يرسل اليها الرهبان التابعين له . واليوم ، بالرغم من امكانات الادمغة الالكترونية ، فقد اصبح من الصعب اكثر فأكثر وضع مشاريع كبيرة او خطة عمل دقيقة الانسجام . «فالعالم يتحول بسرعة فائقة وهو يرسل كثيراً من النداءات والصرخات . ومن واجبنا في كل حين ان نتوجه الى اي مكان في العالم » .

اما «الجزويتية» ، (التي يفهم بها روح الدسيسة والاعمال الخفية) فيبدو انها قد انقضت على غير رجعة . فهل يعني ذلك ان اليسوعيين لم يعودوا يتعاطون السياسة ؟ ان الواقع هو عكس ذلك لانهم ما زالوا يتعاطونها ، بمعناها الرفيع ، اي على مستوى الاخلاق بدلا من مستوى الدسيسة والتدابير السرية .

واذا اتيح لامرئٍ ان يلتقي على التوالي اربعين راهباً يسوعياً ينتمون الى عشر جنسيات مختلفة ، كما جرى مع كاتب هذا التحقيق ، فلا بد له من الاعجاب بمستوى الذكاء الذي يتمتع به افراد الرهبانية . فهو يلاحظ ان دماغ اليسوعي يدور بسرعة هي ثلاثة اضعاف سرعة الدماغ وان الاعداد الفلسفي واللاهوتي والعملي الذي يخضع له اليسوعي بصورة مدهشة كثيراً ما يضاف اليه اعداد علمي في مجالات مختلفة كعلم الاجتماع او التاريخ او علم الاقتصاد او علم اللغة او الطب ، وان البعض منهم متخرجون من جامعة هارفرد او مدرسة البوليتكنيك ، وانهم كلهم يتكلمون ثلاث او اربع لغات والبعض منهم سبعَ او ثماني لغات.

واذا الححت وقلت : «قد تكون على حق ... ولكن هذا الاعداد ينبغي ان يعطي لليسوعي ميزة غير مألوفة في صواب الحكم والفعالية ...» كان الجواب كما يلي : «لا تصدق . صحيح اننا نذهب في الفطنة بعيداً جداً ولكن ادراكاً مفرطاً في الحدة لاية مشكلة معقدة يؤدي بنا الى مناقشة لا نهاية لها للحجج المثبتة والحجج الداحضة بدلاً من معالجة المشكلة معالجة مباشرة .» عندئذ يتبين لك بان اليسوعيين ليسوا فقط على قدر شديد من القوة بل ايضاً من التواضع . فتقول لنفسك ان معرفتهم لنقائصهم بهذه الدقة هي في الواقع احد عناصر قوتهم . وعند ذاك يتأكد لك ان ثلاثة وثلاثين الفاً من الادمغة والارادات التي تعمل لخدمة الكنيسة على هذا القدر من الطاقة مدة ١٢ او ١٤ ساعة في اليوم تشكل بالفعل قوة ضخمة . واذا اتفق لك ان تعبّر عن هذا الرأي امام الاب اروبيه رئيس عام الرهبانية فانه يجيبك وهو يبتسم برقة : «الحقيقة ان العدد ليس كبير الاهمية في حد ذاته . ان قديساً واحداً هو افيد للكنيسة من جيش من اليسوعيين » .

ولنعد الان الى المعضلة التي نحاول الاجابة عنها في هذا التحقيق . فالكنيسة في ازمة وسلطة روما تثير الاعتراض . والمعروف عن اليسوعيين انهم يدافعون عن الرأي المستقيم وانهم اعمدة البابوية . فماذا يفعل الاباء اليسوعيون ؟ ان اجوبتهم لا تدل على مزيد من القلق . فهم ينظرون الى الامور من علو ، اي من مستوى ايمانهم ومن خلال اربعة قرون من التاريخ والنضال . فيقول هنا احد المازحين : «لقد قرأت عن كثير من الازمات المماثلة». ويقول احد الرؤساء الاقليميين : «ان كل شيء يمر بأزمة : المجتمع والشباب واللغة والثقافة ... وما ازمة الكنيسة سوى وجه من وجوه ازمة العالم » . ويقول احد الوعاظ «ان ازمة الكنيسة لا تهمني بقدر ما تهمني ازمة العالم كله . لقد تعبنا من المناقشات حول ما يجب ان يكون عليه وضع الكهنة . فهذه نقطة ثانوية والمهم في الامر ليست طبيعة

الكاهن بل خلاصه. ثم ان هناك سؤالاً يتجاوز بكثير مشكلاتنا الصغيرة ككهنة وهو : «هل تكلم الله ؟ وهل يكلم الله الانسان في شخص يسوع المسيح ؟ وواجبنا بالضبط هو ان نجيب عن هذا السؤال . اما البابا ...»

اما البابا فهل يمكن ليسوعي من القرن التاسع عشر ان يتعرف اليه في التحديد الذي يقدمه عنه اليسوعيون عام ١٩٧٠ ؟ ان واحداً منهم يغتبط مثلا لزوال كل مبالغة في اشكال تكريم البابا ، قائلاً : «الحمد لله اننا لم نعد في زمن جوزيف دومستير او لويس فويو !» . ويقول يسوعي آخر : «ان نذر الطاعة للبابا لا يجعلنا عبيداً للبابوية . ان مهمتنا ليست في الدفاع عن المؤسسات التابعة للبابوية او ان نكون آباء روحيين للحرس البابويّ . اما الاب جوزيف توما ، واعظ كاتدرائية نوتردام في باريس، فيقول: «لم يعد البابا رأس الهرم بل هو في نظرنا محور الدولاب، في حين ان الكنيسة اطاره والمؤمنين اشعته» . اما الاب جان ايف كالفيز ، الرئيس الاقليمي في فرنسا ، فيقول : «علينا ان نفهم نذر الطاعة للبابا في اطار غائيته ، اي خدمة الكنيسة المسكونية . ومجمع الفاتيكان الاخير قد ذكّر بأن مجمع الاساقفة الذي هو استمرار لمجمع الرسل هو ايضاً في حال اتحاد مع الحبر الروماني الذي يتمتع بسلطة عليا وكاملة تشمل كل الكنيسة . وبالتالي فان طاعة البابا تعني ايضاً خدمة الاساقفة على الصعيد المسكوني، كما على الصعيد الاقليمي او الوطني » .

ان هذه الاقوال هي ليسوعيين فرنسيين ولكنها تحدد بوضوح موقف الرهبانية من الازمة الراهنة . وقد قال الكاتب الفرنسي لابروير : «يبدو ان اندر شيء في العالم ، بعد روح التبصّر والتمييز ، انما هو الماس واللؤلؤ» . والواقع ان الفضل يعود الى القديس اغناطيوس في كون اليسوعيين يتمتعون بهذه الروح الى حد كبير . ويبدو ، في ما يتعلق بأزمة الكنيسة ، انهم قد ادركوا تمام الادراك ما هو ظاهري وما هو عميق . فالظاهري هو الاحتجاج بمختلف اشكاله والعميق هو ازمة الايمان نفسه . وهذا يعني ، من جهة اخرى ، اننا قد نجدهم في صفوف

من يضرمون النار لا في صفوف من يطفئونها ، اي انهم قد يذكون نار الايمان بدلا من ان يسهموا في اطفاء حريق الاحتجاج . والواقع انهم في القرن السادس عشر قد اهتموا ببعث الايمان الكاثوليكي اكثر من اهتمامهم بخنق الهرطقة .

رأي اليسوعيين في اليسوعيين

عندما انتخب الاب اروبيه رئيساً عاماً لليسوعيين عبر عن رغبة مشروعة في معرفة رهبانيته معرفة أدق . فأمر باجراء دراسة واسعة وارسل الى اليسوعيين المنتشرين في العالم مجموعات من الاسئلة للاجابة عنها وبدلا من تسمية المشروع باللاتينية، سمي بالانكليزية « الدراسة » (Survey) . وهذه « الدراسة » التي هي الآن قيد الاتمام كانت لها نتائج ممتازة. فقد فتحت اذهان الرئيس العام والرؤساء الاقليميين، كما فتحت اذهان الرهبان انفسهم وحملتهم على التفكير وطرح التساؤلات . انها نظرة اجمالية يلقيها اليسوعيون على اليسوعيين . وفي فرنسا مثلا قام الاب روسو برسم صورة عن الرهبانية بالاستناد الى مجموعة ضخمة من المعلومات والتأملات .

ولا ينسبنا احد الى التخابث ان اكتشفنا في رهبانية اليسوعيين وجهين . ويقول التقرير العام للقسم الفرنسي من « الدراسة » : « اننا نلحظ في الرهبانية وجود حركة ديالكتيكية بين الابداع والابقاء على المؤسسات . فنجد هنا عملا جليلا ونمطا في التصرف يكاد لم يتطور منذ عشرات السنين واكثر . ونجد هناك رسولا مليئاً بالحيوية او فئة صغيرة وقد انطلقوا في تحقيق انجاز جديد كل الجدة .

والتعليم هو ، من بين ما قام به اليسوعيون ، العمل الذي يستوجب منتهى الاحترام . وقد لا تجد في فرنسا مدينة صغيرة لم تكن مدرستها

الرسمية في الماضي معهداً يسوعياً ، كما ان لليسوعيين فضلا كبيراً على التراث المدرسي في العهد الجمهوري . ولكن لم يعد لليسوعيين اليوم سوى ثلاثين معهداً تقريباً وثمة اشاعة في صفوف الرهبانية بشأن هذه المعاهد وهي تذكرنا بما يقوله حراس المتاحف والحدائق العامة عند الغسق : « حان وقت الاغلاق » . فهل يأتي يوم يضطر فيه اليسوعيون الى اغلاق معاهدهم الدراسية ؟

وهناك في صفوف الرهبانية فئتان متواجهتان : فئة تؤمن بضرورة المدرسة اليسوعية وفئة اخرى لا تؤمن . والذين لا يؤمنون هم من أنصار المدرسة الموحدة . فالله ليس محصوراً بالمدارس الكاثوليكية والانجيل يجب تعليمه لجميع الاطفال . ولذلك يرون ان على اليسوعيين الاتجاه نحو الارشاد الروحي في المدارس الرسمية . ويرى آخرون ان المدرسة لم تعد المكان المفضل للعمل الروحي وان عقلية الفرد تصقل في بيئات اخرى. وهم، لذلك، يتمنون ان تكون الرهبانية نشيطة في الحقول المرتبطة بالتسلية . ويقول احدهم بهذا الصدد : « هذا لا يعني ان على اليسوعيين ان ينتشروا في المسابح او في المنتجعات الشتوية . ولكن من الواجب التفتيش عن نقاط ارتكاز في ذلك النطاق » .

اما المؤمنون بضرورة المدرسة اليسوعية فما زالوا ينظرون الى التربية على انها اهم قضايا الانسان . وهم يرون ان للرهبانية ، في هذا النطاق تقاليد يجب المحافظة عليها وشهادة يجب ان تؤديها وان على الرهبانية بنوع خاص ان تبحث عن صيغة جديدة للمدرسة وان تبدعها . والجدير بالذكر ان الخيال المبدع قد طفق يعمل في هذا المجال بحيث ان المدارس التي لم تقفل ابوابها قد اخضعت لعمليات تحويل .

وفي الماضي كان دخول مدرسة اليسوعيين مربوطاً بشرطين على الاقل : ان يكون التلميذ ذكياً وان يكون ابواه جديين في كثلكتهما . ولكن اليسوعيين اصبحوا اليوم اقل تشدداً . ونجد بهذا الصدد ان مؤتمر الرهبانية العام الواحد والثلاثين يوصي في قراره الثامن والعشرين بما يلي :

« يجب ان نوجه عنايتنا الى الشباب الذين تدفعهم حاجات الدراسة الى الانتقال من بلدهم الى بلد آخر وان نلتفت ، بنوع خاص ، الى المتفوقين الذين ينتظر منهم تسلم مراكز القيادة عند عودتهم الى اوطانهم ، وذلك دون ان نفرق بين كاثوليك وغير كاثوليك » . وكذلك نجد في التقرير العام « للدراسة » التي امر بها الرئيس العام ما يلي : « لا احد يجرؤ على القول ، منذ مجمع الفاتيكان الثاني ، بان رهبانية اليسوعيين يجب ان تخص مدارسها بافراد النخبة » . وبما ان الرئيس العام قد طلب الى اليسوعيين ان يهتموا بالفقراء فان البعض منهم يلتفتون اليوم الى ذلك النوع الجديد من الفقراء وهم الاطفال المتخلفون عقلياً الذين كانوا بالامس هدفاً للسخرية .

الرسول المليء بالحيوية

ويقابل تقرير الدراسة العام بين « العمل الجليل » و « الرسول المليء بالحيوية » ، لكنه يضعهما في مكانة واحدة . ان بول فيلر له من العمر ٥٧ سنة وهو ينبض بالشباب . وقد قال لي : « اذا قضيت معي يوماً كاملا شرحت لك حياتي كيسوعي » .

ها هو يصل في الثامنة صباحاً ويبدأ بالكلام فتأخذ فوراً بالاصغاء اليه بكل اهتمام وتظل كذلك حتى الثامنة مساء دون ان تكل او ان يضعف انتباهك لحظة واحدة . لقد عمل كمسقف وهو يجعلك تكتشف عالم الناس الذين يشتغلون على السطوح . وهو يعمل الآن كحداد وهو يحدثك عن المطرقة والسندان وعن الشرارات المنطلقة منهما فتدرك على الفور كيف ان خبرة المسقف والحداد قد اغنت حياة اليسوعي .

ويشرح الاب فيلر كيف ان اكثر المهن تواضعاً يمكنها ان تسهم في البناء والتطوير الروحيين ويقول انه لم يجد من الفنانين والفلاسفة وحتى من اللاهوتيين بقدر ما وجد في صفوف المسقفين والحدادين . ويضيف الاب فيلر بقوله : « ان افراد الشعب يتفوهون بأمور مدهشة

وهم ، في بعض الاحيان ، يكتبون . فهناك كتاب في صفوف الحدادين والنجارين والمزارعين وعمال المناجم ... لكنهم غير ممثلين في الادب الرسمي لان جملهم ليست منمقة ... نعم ، الشعب يكتب — العمال منذ قرن ونصف والفلاحون منذ خمسين سنة — والشعب لا يدري من ذلك شيئاً . وفي ذات يوم قررت ان اطلعه على الامر » .

ولتحقيق غايته هذه التقى الاب فيلر السيد هنري بولاي الذي بدأ منذ ثلاثين سنة اول احصاء عن الادب البروليتاري ، مع العلم انه صاحب كتاب رائع عن حياة العمال ، لكنه مهمل بصورة غير عادلة . انه لرجل ينفر من الناس ويكره اليسوعيين كرهاً شديداً . ولكن بول فيلر جريء . فقد تعرّف اليه واصبح من اصدقائه . وبالاستناد الى المعلومات التي أدلى بها بولاي استطاع الاب فيلر ان يجمع عدداً كبيراً من المؤلفات وان يشكل اول مجموعة للكتاب البروليتاريين . ثم انطلق يجوب كل انحاء فرنسا ليعود وعلى كتفه منجل كبير او تحت ابطه قدوم او في سيارته سندان . وما هذه كلها سوى القطع الاولى في متحف للادوات .

ولكن ما عسى رهبانية اليسوعيين تفعل بمكتبة بروليتارية او بمتحف للادوات ؟ الواقع ان الاب فيلر عندما يسمع ملاحظة عن انقراض المهن اليدوية لا يضبط اعصابه الا لان من واجب اليسوعي الا يقع ابداً في سورة الغضب. فهو يرى ان المهنة هي انبل ما في الانسان وانه يجب على كل حال استعادة القيم التي تمثلها المهنة والتي نشأت منذ ملايين السنين عندما اقدم اسلافنا على نحت اول منقاش للمعادن . واذا كان الانعطاف الذي تحققه الرهبانية في ميدان التعليم يقودها الى الاهتمام بالاعداد المهني فانها ستجد في اشغال الاب فيلر مصدراً غنياً بالمعلومات . وبين « العمل الجليل » و « الرسول المليء بالحيوية » . نجد « فئة العمل الصغيرة » ويبدو انها ستصبح نواة جديدة في صفوف الرهبانية. مثال ذلك ان اربعة يسوعيين يعيشون معاً في مدينة عدد سكانها مئة الف نسمة لكنهم يعملون في اربعة ميادين مختلفة. فالاول يساعد الكهنة المحليين، والثاني مرشد

روحي للطلاب، والثالث عامل في مصنع، والرابع يقوم بعمله الكهنوتي بجانب الراهبات .

واذا علمنا ان رهبانية اليسوعيين هي ، بين الرهبانيات الكبرى ، الوحيدة التي ليس لها فرع نسائي فقد يندهش البعض من اهتمام اليسوعيين بالراهبات . ذلك ان حركة تطور المرأة عامة لم تكن غريبة عن الراهبات . فهن يشتركن اكثر فأكثر في حياة الكنيسة ويهتممن اكثر من قبل بالتعليم الفني والمنزلي والريفي .

ذلك ان زمن الراهبات اللواتي كن لا يطرحن الاسئلة ويكتفين بالاعتراف الى كاهن طيب القلب ، وفي اكثر الاحيان متقدم في السن ومتعب ، هو زمن قد ولّى . فراهبات اليوم يشعرن اليوم بالفضول العقلي والروحي والعقائدي اكثر بكثير من الماضي وهن لم يعدن يحتملن الموعظة التقية أو الترداد الممل او انعدام المستوى . ولذلك فان تقديم المعونة اليهن لا يقتضي فقط خصائص كالتي نجدها عند اليسوعي بل ايضاً معرفة وثيقة بنفسية المرأة وبالمشكلات المطروحة على الراهبات في يومنا هذا . وفي نية رهبانية اليسوعيين اعداد كهنة للقيام بمثل هذه المهمات .

احصاءات من كل حدب وصوب

في نهاية القرن الماضي قرر الاب لوروا القيام بالوعظ في رياضة روحية لمجموعة من العمال العاطلين عن العمل . وعلما منه بان الجائعين لا آذان لهم فقد اعلم العمال المستعدين للصلاة بانهم سيتناولون الطعام في مدرسة اليسوعيين قبل ان يجثوا في الكنيسة . وكان هذا الوعد كافياً لجذب حوالي مئة من البائسين .

وقد لحظ الاب لوروا من بين هؤلاء شيخاً في الستين وقد التوى ظهره بشكل يكاد يجعله يمشي على اربع قوائم لولا ما تبقى له من كرامة بشرية . اما سبب ذلك فليس ضرباً من التقى بل كونه كان يعمل

منذ اربعين سنة على حمل قضبان حديدية مدة ١٢ — ١٥ ساعة في اليوم .

عندئذ ادرك الاب لوروا انه لا يمكن لروح مسيحية ان تتفتح دون عناء في جسم مشوه . واكتشف ان الرجال الذين يصرفون خمساً وسبعين ساعة في الاسبوع في مصانع غير صحية لا يمكنهم دخول الحياة الروحية الا بعد مماتهم . واستنتج الاب لوروا من ذلك بان المشكلة الدينية مشروطة بالمشكلة الاجتماعية ، وانه يجب ، في بعض الحالات الخاصة ، حل المشكلة الاجتماعية قبل طرح المشكلة الدينية . بمعنى آخر ، ايقن الاب لوروا بانه لا ينفع المسيحية أي شيء اذا حققت مكاسب في بلاد نائية كبلاد الزولو ولم تحتفظ بمواقعها في بلد قريب كفرنسا .

وبعد مضي نصف قرن قام الاب ديلار باكتشاف من النوع نفسه . فهو يسوعي بارز واختصاصي بشؤون النقد . وقد دعاه الرئيس الاميركي روزفلت الى الغداء في احدى رحلاته الى الولايات المتحدة ، كما ان المرشال بيتان كان ايضاً يستضيفه . ولكنه ما فتئ ان ملّ هذا النوع من الحياة فسافر سراً الى المانيا في عام ١٩٤٢ لمساعدة العمال المنفيين . وكان ان اكتشف الاب ديلار بسرعة ان الاتصال بالعمال اصعب من الاتصال برؤساء الدول . وهو يقول بهذا الصدد : « ما العمل ؟ ماذا يجب ان اقول لهم ؟ كنت اشعر باني غريب عنهم واني انتمي الى ثقافة اخرى . ومعرفتي للاتينية وللاهوت وصلاتي وترتيلي وثيابي الكهنوتية المزركشة كانت تجعل مني رجلا غريباً في نظرهم ... ذلك اننا ، دون ان ندري وبالرغم منا ، نعيش ونفكر كرأسماليين ... ان صلاتنا هي احياناً اما صلاة اكليريكية واما صلاة محافظة ، لكنها ليست شعبية » .

بيد ان الاب ديلار لم يمت كرأسمالي بل في معسكر الاعتقال في داشو . لقد كان عضواً في « العمل الشعبي » وهو معهد للدراسات والاعمال الاجتماعية اسسه الاب لوروا ويديره اليوم الاب ديبوكوا . والواقع ان هذا المعهد كان ينبوعاً لمختلف تيارات الكثلكة الاجتماعية .

العمل الشعبـــي

ان معهد « العمل الشعبي » يسعى منذ انشائه ، وبالاستناد الى قواعد الانجيل والكنيسة ، الى تحقيق اهداف مماثلة تقريباً للاهداف التي يسعى اليها الماركسيون باسم مجتمع ملحد ، وهي : « العمل على اجراء التحولات في البنى الاجتماعية والدولية ومساعدة جماهير العمال والفلاحين على تحقيق تطورها الجماعي » . والاب لوران واليسوعيون الفرنسيون الذين يخوضون هذه المعركة بلا هوادة قد جعلوا مقرهم العام في فانف احدى الضواحي الباريسية .

والسؤال الآن : ماذا يفعل هؤلاء الرهبان ؟ انهم يبحثون ويدرسون ويتأملون ، مستخدمين في نطاق الحياة الاجتماعية تلك البصيرة التي اشتهر بها تلاميذ القديس اغناطيوس . انهم يسعون الى ادراك الامور على حقيقتها في خضم الفوضى والى فهم التناقضات والشكوك التي تملأ العصر ، وكذلك الى التنبؤ قدر الامكان بما قد يجد من مفاجآت على الصعيد الزمني وتقديم الارشادات لمن في يدهم السلطة والمبادرة والابداع . هذه هي ، بكلمات اخرى ، اهداف هؤلاء الآباء ومدى طموحهم .

انهم يتلقون في مكتبتهم كل ما ينشر في العالم من كتب ومجلات مهمة ليقرأوها فوراً ويتمثلوها ويؤولوها بواسطة الاختصاصيين من علماء اجتماع واقتصاديين واحصائيين واختصاصيين بالشؤون السوفياتية او الصينية . واليسوعيون في هذا المعهد يراقبون باستمرار كل الدول وكل ما فيها من مشكلات اجتماعية . ان باستطاعتهم مثلا ان يقولوا ، بالنسبة الى اية سنة من السنين ، كم انتجت الدجاجات الاميركية من البيض وكم غزلت الديدان اليابانية من خيوط الحرير .

ويتساءل بعض الفضوليين عن المسالك الدقيقة التي تخطو فيها الرسالة المسيحية حتى تصل الى اهتمامات كهذه . والواقع ان لدى اليسوعيين في ذلك المعهد احصاءات اخرى . فهم يؤكدون انه اذا جعلنا جرذا من

جرذان سان فرنسيسكو يتبع نظام التغذية السائد بين فلاحي ولاية بنغال في الهند لما تمكن من الاستمرار في الحياة ، وان فضلات الاطعمة التي تلقيها ربة البيت في نيويورك في علبة الاقذار تكفي لتغذية عائلة من عائلات بومباي ... ومن الواضح بعد حسابات من هذا النوع ان اليسوعيين لا يجمعون الارقام حباً بالاحصائيات بل يراقبون ما يجري في العالم ليستطيعوا تقديم المساعدة . واذا كانوا يعددون ما في العالم من ظلم اجتماعي وفوضى اقتصادية فلكي يحملوا الناس على وعي مسؤولياتهم .

وغني عن القول ان اليسوعيين لا يفكرون في ان يعطوا الجائعين في العالم الثالث دروساً في المحبة المسيحية ، كما انهم لا يفكرون في القيام بأعمال على مستوى الجماهير . انهم بالأحرى يتبعون التقاليد اليسوعية ويركزون جهودهم على افراد النخبة ، اي على الافراد القادرين على ممارسة النفوذ وزيادة فعالية العمل . ومن هذه الزاوية فان منشورات « العمل الشعبي » تصيب هدفها ، وبصورة خاصة مجلة « مشروع » التي لا يبلغ أثرها المسؤولين المسيحيين فحسب . فهذه المجلة تلقى اهتماماً كبيراً في الاوساط اليسارية المتطرفة وهذا ليس بعجيب اذا علمنا ان يسوعيي « العمل الشعبي » يتفوقون في معرفتهم لماركس ، على كثير من علماء الماركسية .

ومنذ عام ١٩٦٢ « وللعمل الشعبي » فرع في مدينة ابيدجان تحت اسم « المعهد الافريقي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية » حيث يعمل عشرة من اليسوعيين (عالم في الانتولوجيا وآخر في علم الاجتماع وآخر في الاقتصاد وآخر في الديموغرافيا وستة آخرون من ذوي الاختصاص المتنوع) وهم يعلمون آلاف المواطنين ما يجب ان يعرفه الافريقي في القرن العشرين . انهم يعلمون بالمراسلة الموظفين من الفئة المتوسطة ويدربون موجهي النشاطات في القرى من الذكور والاناث . اما المواد التي يدرسونها فهي تراوح بين دراسة الدجاج ودراسة احدى النقابات دراسة مستفيضة وبين فيزيولوجية المرأة وتهيئة الطعام في البيت . لقد كان غاندي يقول :

«ان الله يظهر نفسه للجائع على شكل قطعة خبز ». اما الافريقيون المزمعون على النمو فالله يرسل اليهم رهبانه اليسوعيين .

فزاعات وشياطين

ويتفق لرهبانية اليسوعيين ان تسير على طرق اكثر غرابة . فمنذ خمسين سنة كان اليسوعيون والماسونيون اعداء ألداء اذ كان اليسوعيون يعتبرون الماسونيين عملاء الشيطان وكان هؤلاء يعتبرون اليسوعيين أشبه بالفزاعات . ولكن الاب غروبر اليسوعي الالماني قام في عام ١٩٢٦ بمبادرة خاصة فعرض على الماسونيين الالمان اتفاق سلام بالوقوف معاً في وجه النازية التي كانت في بداية عهدها . وفي فرنسا قام الاب برتلو بدراسات موضوعية جداً محاولاً وضع الاخصام في جو من التسامح والتعاطف . ومن الجانب الماسوني قام البير لانتوان في عام ١٩٣٦ بنشر مقاله الطنان : «دفاعاً عن اليسوعيين» . وفي اشارته الى الخصام الذي ساد العلاقات بين اليسوعيين والينسانيين يقول لانتوان « لو انتصرت الحركة الينسانية المخالفة كلياً للروح الفرنسي لكانت الفلسفة او حركة التفكير الحرّ قد شعرت بنير اثقل بكثير من النير الذي ينسب الى اتباع ليولا » . اما اليوم فلم يعد لذلك الخصام وجود وقد دفنه الاب ريكيه منذ عشر سنوات عندما القى كلمة في محفل مدينة لافال الكبير .

ومن جهة اخرى نجد ان الاب ريكيه ، الواعظ سابقاً في كاتدرائية نوتردام في باريس ، والكاردينال دانيلو هم مع الحاخام ايزنبرغ والشيخ حميد الله والقس دوما والقس ميكايلي المستشارون الدينيون « لاخوية ابراهيم »، وهي مؤسسة تدعو اليهود والمسيحيين والمسلمين للاتحاد ، ولوعي كل ما شكل ، منذ ايام ابراهيم ، تراثهم الروحي والثقافي المشترك ... كما تدعوهم الى جانب ذلك للعمل على تحرير العالم من ربقة الكراهية ومن التعصب العنيف والكبرياء العنصرية ، وذلك بتوضيح المنابع الحقيقية والالهية التي ينبثق منها الاخاء بين البشر ».

وحتى عام ١٩٤٦ كانت الرهبانية لا تقبل في صفوفها المسيحيين الذين هم من أصل يهودي . وقد حدث مرة ان دخل الرهبانية اخوان بارزان هما الاخوان فالنسان ولم يكتشف اصلهما اليهودي الا بعد ان قدما النذور الاخيرة . وبما ان الرئيس العام للرهبانية لا يستطيع تعديل نظام الرهبانية فلم يتمكن من ابقائهما الا بقرار من الكرسي الرسولي . ويروى بعد الغاء ذلك الحظر اثر الحرب العالمية الثانية ان احد اليسوعيين الظرفاء شكر الله بالعبارات التالية : « بامكانك ، يا يسوع الحبيب ، ان تعود الآن الى الارض . فلا شيء يمكن ان يمنعك من ان تصبح يسوعياً » .

وبما ان الذكاء متوافر في صفوف اليسوعيين فان العمل العقلي يبقى بصورة مستمرة احد مصادر اشعاعهم الكبرى . فالاب تيار دو شاردان هو موضوع افتخار مزدوج بالنسبة الى الرهبانية ليس بسبب مؤلفاته فحسب ، بل ايضاً بسبب طاعته . فالمعلوم انه لم ينبس ببنت شفة عندما اقدمت روما بواسطة رسالة البابا على نبذ نظرياته دون تسمية صاحبها . ولكن هذا حدث منذ عشرين سنة وهي فترة تكاد تساوي قرناً كاملا . وفي ذلك الحين كان من البارزين ايضاً لاهوتيان هما الاب دو لوباك والاب دانيلو ، وكان كل منهما يعتبر بعيداً عن الحذر . اما اليوم فنجد ان الاول يتجلبب بالمديح والثاني بالأرجوان . اما فكر اليسوعيين فنراه يسير قدماً بعفوية لم يسبق لها مثيل في مجلة « دراسات » كما في مجلة « المسيح » . وحين اقدم الاب ميشيل دوسيرتو على نشر كتابه « وعي الكلمة » ، وهو اعمق تحليل لثورة ايار ١٩٦٨ ، لاقى ترحيباً واسع النطاق واشتركت في ذلك الجريدة الساخرة « لوكانار انشينيه » .

وفي الطرف الآخر من الميدان الرسولي نجد اليسوعيين يعملون على مكافحة الفقر . مثال ذلك : العمال الاجانب ، الذين لولاهم لما وجد احد في فرنسا لتكنيس الشوارع وجمع الاقذار والسقوط من السقالات . فاليسوعيون في باريس وليون ومرسيليا يعملون الى جانبهم

كمرشدين روحيين .

واخيراً نجد اليسوعيين يشرفون على تمارين الرياضة الروحية في مراكزهم ويقومون بمساعدة كهنة الابرشية . بل ان هذه النشاطات تشكل قسماً كبيراً من عملهم لان اليسوعيين هم ، قبل كل شيء ، رهبان وكهنة . وهذا ما قد ينساه البعض احياناً كثيرة .

كارلوس ماركس على حق

عندما قالت مؤخراً احدى صحف مدريد بأن ليس من انقسام في صفوف اليسوعيين فهم الناس على الفور ان اليسوعيين الاسبان منقسمون بعضهم على بعض . لا شك في ان تلك الصحيفة كان بامكانها ان تثبت ما قالت فتأتي بقرائها الى « كازادي اسكريتورس » (حيث يقيم اليسوعيون الذين يكتبون في منشورات الرهبانية) ليشهدوا كيف ان الاب غاريرو والاب جينير يجلسان الى مائدة واحدة وليقال لهم : « الا ترون الى اي حد هما متفقا ن ؟ »

ولكن الاشتراك في الطعام هو غير الاشتراك في الافكار والواقع ان هذين الراهبين على خلاف شديد . فالاب غاريرو يحترم النظام القائم في حين ان الاب جينير قد حكمت عليه المحكمة العليا بمنعه من الاقامة في مدريد لمدة سنة كاملة . واذا سئل الاب جينير : « ماذا ستفعل ؟ » انفجر ضاحكاً وقال بعد ان يهدأ : « سأتوجه الى برشلونة لاعود الى عملي واحاول الوصول الى نتيجة افضل » . واذا سئل مرة اخرى : « اهو العمل الذي ادى الى مغادرتك مدريد ؟ » كان الجواب ضحكة جديدة .

والاب كارلوس جينير قد الف بالاشتراك مع الاب ديونيسيو ارانزادي كتاباً عنوانه « انا والمشكلة الاجتماعية » وهو كتاب في النظرية الكاثوليكية الاجتماعية معدّ للاستخدام في المدارس الاسبانية . وفي الطبعة الاولى لهذا الكتاب نجد اسئلة كهذه : « هل كان كارل ماركس

على حق عندما قال ان العالم منقسم الى طبقتين : المالكين وغير المالكين ؟ لكن التلامذة الاسبان لم يتح لهم الوقت الكافي للجواب لان الكتاب سحب من ايديهم . غير انه لم يكن بامكان هؤلاء التلامذة ان يخطئوا ماركس لان بلادهم منقسمة بصورة واضحة الى طبقتين . ولذلك يرى الاب جينير ويسيوعيون آخرون انه ليس هناك اسبانيا واحدة بل اثنتان وكذلك كنيستان مسيحيتان ورهبانيتان لليسوعيين احداهما لا تناهض من يملكون كل شيء ومن في يدهم السلطة ، والثانية عزمت بكل قدرتها على خدمة الذين لا يملكون شيئاً . والواقع ان الثانية هي الاكثر شباباً والاكثر حيوية والاكثر اهمية .

من الكتائب الى الاحياء الفقيرة

ان اكثر افراد هذه الفئة نفوذاً هو الاب خوسي ماريا دو لانوس . فقد كان مدة عشرين سنة المرشد الروحي العام لشباب الكتائب وكان يلبس قميص الكتائب الازرق فوق ردائه الكهنوتي . ويقال انه قد اعدّ من الناحية الروحية مشاهير النظام القائم وانه لم يكن هناك يسوعي اسباني اكثر منه بروزاً ونفوذاً في اوساط المجتمع الاسباني العليا . ولكن الاب دولانوس ترك كل ذلك على حين غرة ، اسوة بما فعله القديس اغناطيوس وذهب يعيش في احدى ضواحي مدريد الفقيرة حيث انشأ مدرسة للاولاد دعاها «مدرسة اول ايار المهنية» . واليوم نجد ان مجموعة من البنايات قد ارتفعت مكان المساكن الفقيرة وان المدرسة المهنية اصبحت كبيرة الاهمية وتقبل كل فتيان الضاحية العمالية . والجدير بالذكر ان المرشد الروحي السابق لشبان الكتائب قد احتفظ بعادات عجيبة. فهو في صباح كل يوم يرفع العلم على سارية المؤسسة ولكن العلم يختلف من يوم لآخر ، بحيث ان جميع اعلام البلدان قد تم رفعها في الضاحية المدريدية ، بما في ذلك العلم السوفيتي . وما هذه الا وسيلة كغيرها من الوسائل لتذكير الكادحين الشبان في اسبانيا بان عليهم ان يتضامنوا مع

سائر الكادحين في العالم .

والاب دولانوس هو اكثر من يسوعي غريب الاطوار الى حد ما . فالاب كونزالس روين ، وهو احد ابرز اللاهوتيين الاسبان ، يعتبره رسولا ويعجب به الى حد كبير . وغني عن القول ان موقف الاب دولانوس واقواله لا تسر الحكام . ولكن كيف يمكن لجم رجل يجله الشعب ، ويحترمه بصورة مستمرة من كانوا شهوداً على ماضيه ؟

على خطى بوردالو

وهناك يسوعي آخر وضع الرهبانية على خط العمل الاجتماعي هو الأب خوسيه ماريا دياز اليغريا ، الذي اثار بكلامه ، وخاصة بخطاب طويل القاه في برشلونة ، استياء حكام اسبانيا . ولعل اخويه البارزين الجنرال منوال والجنرال لويس دياز اليغريا قد استاءا اسوة بالاخرين .

والجدير بالذكر ان اليسوعيين قد عرفوا دوماً كيف يرفعون صوتهم وكيف يتكلمون بوضوح عندما تقضي بذلك رسالتهم ، كما فعل الاب بوردالو الفرنسي حين أنب الملك لويس الرابع عشر تأنيباً شديداً على خياناته الزوجية ، وكان بوردالو واقفاً على المنبر والملك محاطاً بحاشيته . ومثال آخر نجده في القديس كزافيه الذي كتب الى ملك البرتغال يقول له : «لقد علمتني التجربة، يا سيدي ، ان عظمتكم ليس بامكانها نشر الايمان المسيحي في الهند بل تجريد البلاد من مواردها ... اني اضرع الى الله لينعم عليكم بفهم ارادته المقدسة ويعطيكم القدرة على تحقيقها بمثل ما تشتهون ساعة موتكم ... ان هذه الساعة هي اقرب بكثير مما تتصورون . استعدوا اذن لان لكل مملكة نهايتها . انها لتجربة جديدة ان تروا نفسكم ساعة الموت مجردين من كل تلك الممالك ومنفيين خارج الفردوس . وقى الله عظمتكم من ذلك . »

وكان ان ابعد الاب دياز اليغريا عن اسبانيا ولم يعرف من قرر

ذلك . ولكن الاب اليغريا يتابع اليوم تدريس عقيدة الكنيسة الاجتماعية في روما ، في الجامعة الغريغورية .

وهذه العقيدة الاجتماعية التي جددها مجمع الفاتيكان الثاني كان اليسوعيون الاسبان ، من افراد «الرهبانية الثانية» ، اول من طبقها في اسبانيا . وثمة تقليد راسخ في الرهبانية يقضي بان يقوم اليسوعي بقسم من دراسته في بلد غير بلده الاصلي . وعندما كان اليسوعيون الاسبان يعودون الى وطنهم بعد تعرفهم على كثير من الامور الجديدة والاستمتاع بها ، كانوا يأنفون مما يجدونه في الكنيسة الاسبانية من روح محافظة . وهكذا اصبح العمل الاجتماعي ميدان اليسوعيين الاسبان المفضل وقد القوا بانفسهم فيه بكل ما لديهم من قوة . انهم اليوم يدعمون نضال العمال ويفتحون في بعض الاحيان بيوتهم وكنائسهم لعقد اجتماعات النقابات التي يمنعها النظام القائم . ويشرح احد اليسوعيين هذا التصرف بقوله : «ان جماعات العمال لا يحق لها ان تجتمع . فهي اشبه بجمع من الاجانب يبحثون عن ضيافة . وبما ان متّى الانجيلي يقول : «كنت غريباً ولم تستقبلوني» فاننا نطبق القاعدة الانجيلية» .

ولكن هذا التطبيق يكلف اليسوعيين غالياً . ذلك ان السلطة تطاردهم وتسجنهم وتنفيهم... ويخلص الاب جينير الى القول باسما «بمعنى آخر ، انهم يشجعوننا » . واذا سئل : «لماذا تبدون هذا الاهتمام الشديد بالعمال ؟ » اجاب باسماً : «لانهم بحاجة الينا» . ثم يبتسم مرة اخرى ويمضي في الاجابة قائلاً : «ومن الضروري ، على كل حال ، توزيع العمل بين الكهنة . فنحن نهتم بافراد النخبة من العمال ونترك لمنظمة «عمل الله» امر الاهتمام بالنخبة من البرجوازيين .

وفي صفوف الرهبانية نفسها نجد العناصر المحافظة تتحرك بنشاط. فقد حاول المحافظون لدى الرؤساء الاقليميين فصل اليسوعيين «السود» عن اليسوعيين «الحمر» في بيوت الرهبانية . ويقول احد التقدميين بهذا الصدد : «انهم لم يفلحوا . ونحن على يقين بان البابا يدعمنا . ففي الخطاب الذي القاه السنة الماضية امام الكرادلة قال ان الوضع في اسبانيا يبعث

على القلق بقدر ما يبعث عليه الوضع في فيتنام وبيافرا والشرق الاوسط . انه لا يستطيع ان يتغاضى عن كون اسبانيا الكاثوليكية هي احد بلدان العالم التي يوجد فيها اكبر عدد ممكن من الكهنة الملاحقين او المسجونين ، هذا مع العلم ان هناك نضالاً «قومياً» يقوم به شعب مقاطعة الباسك ومقاطعة كاتالونيا ... اما رؤساء كهنتنا فهم مرتبطون بالقسم الذي يؤدونه امام رئيس الدولة يوم تعيينهم ... ومع ذلك فان عدداً منهم قد بدأ يكتشف حقيقة الكلمة الانجيلية القائلة : «لا يستطيع احد ان يخدم سيدين» . اما نحن فلا نخدم الا سيداً واحداً .

وتأتي خاتمة هذا القسم من البحث عن اليسوعيين الاسبان بصورة عفوية على لسان احد المحامين في مدريد اذ يقول : «ان اليسوعيين هم في سبيل تحقيق اعظم نجاحاتهم . لقد اصبحوا شعبيين في اسبانيا الى حد يجعل البعض يتساءلون عن امكانية اقدام الحكومة على طردهم» .

في المجتمعات الغنية

«انت ذاهب الى اليسوعيين الهولنديين ؟ اهدهم سلامنا وقل لهم اننا نحسدهم على امكانهم الخوض في موضوعات كبتولية مريم او زواج الكهنة . فهذا دليل على ان لديهم من وقت الفراغ اكثر مما لدينا» . وبعد يومين من مغادرة حجرة الاب جينير الصغيرة وجدت نفسي في مكتب فسيح هو مكتب الاب فاندرمير ، رئيس معهد القديس اغناطيوس ، وادركت فوراً ان الصليب الذي يحمله يسوعيو هولندا اخف نيراً من الذي يحمله يسوعيو اسبانيا . كان الاب جينير يبدو في لباسه كاحد العمال البسطاء . اما الاب «فاندرمير فهو ، في لباسه الانيق ، اشبه بمدير عام لاحدى الشركات ، مع فارق بسيط هو ان على مكتبه موقداً صغيراً يتيح له اعداد القهوة بوسائله الخاصة » .

ويتقبل الاب فاندرمير سلام اليسوعيين الاسبان وملاحظاتهم بروح اخوية ، كما يقر بأن الحياة في هولندا حياة اسهل . ولكن هذا لا يعني

ان اليسوعيين هنا ينامون على حرير بل ان في هولندا قدراً اقل من الظلم الواجب مكافحته ومن الفقر الواجب اسعافه . واسوة بمن سبقهم وبسائر اخوتهم في الرهبانية فان اليسوعيين الهولنديين يقومون باعمال الوعظ والتعليم ويشتهرون في ميادين اللاهوت وعلم الاجتماع وعلم الاحياء ، والاقتصاد، والفلك ، وفي ستة وثلاثين ميداناً من ميادين العلوم الاخرى. وبالاضافة الى ذلك ألم يشتهر اليسوعيون الهولنديون ايضاً بالجدال والمحاجة ضمن الكنيسة ؟ وهنا يبتسم الاب فاندرمير قائلا : «اكثر من اللزوم» .

والواقع ان اليسوعيين قد اتخذوا في الازمة مواقف هي ابعد ما يكون عما يسمى سلبياً «بالروح اليسوعية» . ولنذكر هنا قضية الاب فريجبورغ المرشد الروحي للطلاب في امستردام . فقد عقد خطوبته على احدى الفتيات وعرض مشروع زواجه على رؤسائه للحصول على موافقتهم ، كما اعرب عن رغبته في الاحتفاظ بعمله كمرشد روحي بعد زواجه وبما ان الكنيسة الروحية لا تمثلها السلطات الكنسية وحدها طلب الاب فريجبورغ موافقة الطلاب الذين يرعاهم . فأجاب الطلاب بالموافقة بنسبة ٨٥٪ ، في حين اجابت السلطات الكنسية بالرفض . ولكن هذا لم يمنع الاب فريجبورغ من عقد زواجه . الا انه اضطر الى التخلي عن مهامه . وكان ان تضامن معه الطلاب والمرشدون الروحيون ، كما ان الاب اوسترهوس والاب فاندرستاب اليسوعيين قد توليا الدفاع عنه علناً فطردا من الرهبانية . وفي الفترة نفسها قام الاب شوننبرغر معاون الرئيس العام للاقاليم الهولندية والالمانية بتقديم استقالته بصورة طنانة . وهكذا يبدو ان حجر الطاعة الذي بنى عليه القديس اغناطيوس رهبانية اليسوعيين قد بدأ يتحرك في إطاره . واذا سئل الاب فاندرمير عن رأيه في ذلك قال : «ليس علي ان ادين اخوتي . اني ارى بالفعل ان القضايا التي تشغلهم هي اقل جدية من التي يواجهها اليسوعيون الاسبان . اما عن الطاعة فانا ليس بامكاني ان ابقى يسوعياً اذا توقفت عن الطاعة . انه من

الممكن ، دون شك ، تغيير كثير من الاشياء . ولكن ماذا ينفع تعديل القوانين والانظمة اذا لم تكن الطاعة في اساسها ؟ »

الولد المتعب

اما الاب فان كيلزدونك فهو في صفوف اليسوعيين والكاثوليك الهولنديين بمثابة الولد المتعب . فقد صرح مرة لصحيفة اشتراكية طلبت اليه ان يتحدث عن التبتل : «انني سعيد جداً في حياة التبتل لما فيها من قيم بالغة الاهمية . ولكنني ، من جهة اخرى ، مقتنع كلياً بان الكنيسة الكاثوليكية لا مستقبل لها اذا لم تقبل بوجود كهنة متزوجين . لقد قمت بتدريس الحياة الروحية على نهج القديس اغناطيوس لاكثر من نصف الكهنة الهولنديين ولذلك فانا اعرف ما يلاقونه من عذاب . ان حياة التبتل ربما كانت ممكنة في القرن السابع عشر ولكنها لم تعد ممكنة في يومنا هذا » . وقد يخطر على الذهن ان الاب فان كيلزدونك يشعر بالاحراج اذا لفت نظره الى ان البابا يرى عكس ذلك . فهل يحق لليسوعي ان يعارض البابا علناً ؟ ويجيب الاب كيلزدونك بقوله : بما اني اشعر ، من جهتي ، بان الابقاء على حياة التبتل يعرض مستقبل الكنيسة للخطر ، فاني اخون واجبي كيسوعيّ اذا كنت لا اصرح بذلك علناً ؟

— حتى ضد البابا ؟

— اني ارى ان رهبانية اليسوعيين من رئيسها العام الى اصغر راهب فيها لا يمكنها ان تخدم البابوية، بصورة مثمرة ، الا اذا اتخذت موقفاً نقدياً مستقلاً .

ويبدو ان للاب فان كيلزدونك ذكريات سيئة عن الاب سباستيان طرومب الذي ارسلته دائرة « حفظ الايمان » في الفاتيكان منذ خمس عشرة سنة لتطهير كنيسة هولندا . ويقول عنه الاب فان كيلزدونك ساخراً انه جاء متجهم الوجه كتوما «ويسوعيا» بشكل غير مقبول فاستنطق البعض ووبخ البعض الاخر وخطأ الجميع ، تاركاً

في صفوف الاكليروس الهولندي اسوأ صورة عن رهبانية اليسوعيين .

ولكن هذه الصورة اصبحت اليوم صورة معاكسة . فقد كان لطرد الاب اوسترهوز والاب فاندرستاب من الرهبانية وقع أليم في نفوس الكاثوليك الهولنديين . والجدير بالذكر ان الاب اوسترهوز هو اهم الذين اشتركوا في وضع الليتورجيا الهولندية الجديدة وان صلواته يجري انشادها في جميع كنائس هولندا . وفي امستردام اجتمع مئة وخمسون يسوعياً ليحرروا رسالة الى رئيسهم العام . وبدلا من ان يكتبوا في بدء الرسالة «حضرة الاب الرئيس العام الجزيل الاحترام» كتبوا قائلين «عزيزنا الاب اروبيه» . كذلك بدلا من ان يوقعوا الرسالة بقولهم «اولادكم المطيعون والمجلون» كتبوا قائلين «اخوتكم في المسيح يسوع ». اما نص الرسالة نفسه فكان دون ريب نص مناقشة حامية .

وعندما استقبل الاب اروبيه الاب اوسترهوز والاب فاندرستاب قال لهما «ليس عندكما روح الرهبانية فاستقيلا» فأجاباه : «اننا نعتقد بان فينا روح الرهبانية . واذا كنت ترى عكس ذلك فما عليك الا ان تتحمل مسؤولياتك وان تطردنا» . والواقع ان تلك الرسالة تشير الى ان روح الرهبانية كما يفهمها الرئيس العام هي غير الروح التي يستوحيها اليسوعيون الهولنديون .

ان وضع اليسوعيين الهولنديين يختلف بالفعل اختلافاً بيناً عن وضع اليسوعيين الاسبان . فاليسوعي الاسباني الذي يصرف نهاره في المنجم بالقرب من العمال يبدو بعيداً عن اليسوعي الهولندي الذي يصرف ليلته في احد المراقص الى جانب الطلاب . والاب فان كيلزدونك يمارس احياناً هذا النوع من الرسالة الدينية . فهو يصف نفسه جالساً بالقرب من احد الشبان في احدى علب الليل فيقول : «ان الشاب في حاجة ماسة الى ان نستمع اليه ... فهو يعلم اني كاهن وصديق . ذلك اني لا اقصد هذه الامكنة دون ان اعلق على سترتي صليباً صغيراً .

وهكذا يشرع الشاب بالكلام ... ويسرّ اليّ بمشكلاته وقلقه ... اما انا فابقى مكاني بهدوء وصبر ، كما في كرسي الاعتراف . لا يمكنك ان

تتصور مقدار الخير الذي يمكن ان يفعله الكاهن في مثل هذه الحالات وفي يده كأس من الجعة » .

ومغزى كل ذلك ان مجال العمل مفتوح امام اليسوعيين في المجتمعات الغنية كما في المجتمعات الفقيرة .

رسول الاسفلت

وفي ذات يوم من عام ١٩٤٥ ، يوم عيد جميع القديسين ، كان الاب روبرت ماير يقيم القداس في احدى كنائس مدينة ميونيخ . كان واعظاً لا مثيل له واكبر الوعاظ شعبية في جنوب المانيا . وكان قد فقد احدى رجليه في الحرب العالمية الاولى حين كان ضابطاً ، ولذلك كان يقف منتصباً كالسيف على نصله . وعند تقديم الذبيحة التفت الى المصلين ليقول لهم «السلام لجميعكم» لكنه بقي بلا حراك مدة ثوان طويلة . ذلك انه كان قد مات فجأة بالسكتة القلبية ولكن رجله الاصطناعية قد ابقته واقفاً بجانب المذبح .

ان اليسوعيين الالمان يفخرون جداً بالاب ماير ليس لانه مات واقفاً بل لانه بقي منتصب القامة روحياً في وقت كان فيه الاكليروس الالماني ينزع بالاحرى الى الانحناء . والحقائق التي كان يتفوه بها عالياً في كنائس بافاريا كانت تغيظ النازيين الذين اوقفوه مرات عديدة ولكنهم لم يتجرأوا قط على نفيه فاكتفوا بوضعه في الاقامة الجبرية في احد الاديرة .

ولكن ، لم يكن لكل اليسوعيين الالمان حظ كهذا . مثال ذلك ان الاب ديلب ، مدير مجلة «اصوات الزمن» وعضوالمقاومة الالمانية ، قد شنق في الثاني من شباط ١٩٤٥ .

في خلال الحرب اقدمت السلطات الالمانية على اغلاق جميع بيوت الرهبانية وكان ابسط اتصال مع احد الرهبان اليسوعيين يجعل المرء مشبوهاً في نظر السلطات . وقد قال بهذا الصدد احد القضاة النازيين :

«يجب على كل الماني ان يحذر اليسوعيين بشدة» . وفي عام ١٩٤١ اعلن هتلر ان اليسوعيين غير جديرين بحمل السلاح وطردهم من الجيش . وكان ان غادر معظمهم ساحة القتال لدخول معسكرات الاعتقال والواقع ان عدداً قليلاً من الالمان الذين عاشوا تلك الفترة يشعرون اليوم براحة الضمير التي يشعر بها اليسوعيون بصدد ما فعلوا .

وفي فرانكفورت كان الاب برتش عميداً لمعهد القديس اغناطيوس ولم يكن في وسع النازيين اضطهاده دون تشكك في الضمير . ذلك انه كان تجسيداً «للنموذج الآري الاشقر الطويل القامة» . كان وجهه وجه رجل قوي السلطة وهيئة جسمه كلاعب الروكبي وكان من الاسهل تصوره لاعباً رياضياً . والواقع ان من دواعي السرور ان يكون الاب برتش مطابقاً للصورة المرتسمة في الذهن عن اليسوعي الالماني . وبعد مضي ساعتين كنت في مكتب الاب هيرشمان وهو رجل اسمر قصير القامة في عينيه بريق من الذكاء والظرف . وعندئذ قلت لنفسي ان اليسوعيين الالمان عندهم من التنوع ما عند اليسوعيين في البلدان الاخرى وذلك ليس فقط في اشخاصهم بل ايضاً في نشاطاتهم .

واهم هذه النشاطات وارفعها مستوى هي البحوث اللاهوتية . فالالمان عامة موهوبون في التفكير الفلسفي . ولذلك نجد كتب الاب كارل رانر قد طبع منها اكثر من ثلاث مئة الف نسخة في سلسلة كتب الجيب التي يصدرها الناشر هردر . فالاب رانر هو احد ابرز اللاهوتيين في هذا العصر ويتفق له في بعض الاحيان ان يبلغ اقصى حدود التجدد ، فيعرب له الفاتيكان عن معارضته لآرائه ، كما يتفق أن عشرات من الكرادلة ومئات من رؤساء الاساقفة والوفاً من الاساتذة والطلاب يعربون له عن اعجابهم .

وثمة ميدان آخر يبذل فيه اليسوعيون الالمان نشاطاً واسعاً هو ميدان اعداد الكهنة واعادة تدريبهم وتثقيفهم من حين لاخر .

وكذلك نجد الاب يوهنس ليبش قد كرس نفسه لايقاظ ضمير

المسيحيين وبث الوعي في نفوسهم . انهم يسمونه «رسول الاسفلت» و«مذياع الله» وهو في الواقع يعمل في كل الامكنة : في الشوارع ودور السينما والسجون وحتى في السيرك . ويغطي الحيطان بالملصقات المثيرة للشفقة ، وفيها عادة صور اطفال وشيوخ جائعين انظارهم كانظار المصلوب ، كما انه يلصق بعض الشعارات التي تقلق النفوس . كذلك اقدم الاب ليبش على تأسيس حركة سماها «العمل ٣٦٥» ، اي بقدر عدد ايام السنة وهي تحتوي فئات عمل مؤلفة من ثمانية الى عشرة اشخاص يقومون بالعناية بالمرضى ويزورون السجون ويساعدون الشيوخ ويستقبلون الطلاب من غير البيض ويؤمنون السكن للعمال الاجانب ويلصقون مواعيد القداس على الاوتوسترادات ويوزعون الكتاب المقدس في الفنادق .

ان المانيا قد تألمت كثيراً من التحجر السياسي ولذلك اصبح الحوار فيها موضع تبجيل . والواقع ان اليسوعيين يقترحون اقامة حوار على كل من يرغبون فيه . مثال ذلك ان الكاردينال بييا اليسوعي الالماني قد ناضل بصورة رائعة ، كما يعلم الجميع ، في سبيل الحرية الدينية والاخاء بين المسيحيين ، ولذلك حظي بشعبية لا مثيل لها في صفوف المسيحيين غير الكاثوليك .

واذا ذكّرنا اليسوعيين بان احد الاهداف الرئيسية التي حددها البابا لرهبانيتهم هو مكافحة الالحاد يجيب اليسوعيون الالمان بقولهم : «عفواً» ! عندما قال الاب الاقدس لم يقصد ان نكافح الالحاد بل ان نواجهه . (انهم ضليعون من اللغة اللاتينية ولكنهم في الوقت نفسه «يسوعيون». فهناك امثلة عديدة على المكافحة . ولكن المماحكة امر يفتخر به اليسوعيون) . وهكذا نجدهم قد اسسوا معهداً خاصاً دعوه «معهد الالحاد» . ويقول الاب برتش بهذا الصدد : «ان انشاء معهد من هذا النوع لا يعني القيام بحملة صليبية بل على العكس . فاننا ندرس الالحاد ونتلقى منه اندفاعاً يحث ايماننا ويقويه» . ولكن اليسوعيين الالمان يذهبون

بالحوار الى ابعد من ذلك حتى ان البعض منهم وخاصة الاب رانر يحاجون ، ببشاشة ، الماركسيين او الشيوعيين في المناقشات العامة .

في الولايات المتحدة

اما في الولايات المتحدة فيبلغ عدد اليسوعيين سبعة الاف . وهم يركزون نشاطهم على التعليم الذي يؤمنونه في اكثر من خمس عشرة جامعة . والجدير بالذكر ان جامعة جورج تاون ، بالغرب من واشنطن ، فيها مدرسة مختصة باعداد الديبلوماسيين وهي الوحيدة من نوعها في اميركا . ويقول البعض ان واحداً من بين عشرة من الحقوقيين الاميركيين هو خريج جامعة يسوعية .

واليسوعيون لا يحصرون انفسهم في التعليم العالي . ويقول الاب ادوارد، الاستاذ في بوسطن بهذا الصدد : «نحن، بالنسبة الى التعليم في اميركا ، نقوم بالعمل الذي يقوم به في فرنسا اخوة المدارس المسيحية» . ويقول اليسوعيون غير الاميركيين بان يسوعيي اميركا من الاغنياء . فيجيب الاب داف بقوله : «من الواضح انهم لا يعرفون رسوم الدرس في معاهدنا » (٢٠٠٠ دولار في السنة) .

واثر الحرب العالمية الاولى ، كان استقبال المهاجرين احدى المهام الرئيسية التي قام بها اليسوعيون : «لقد وضعنا نصب اعيننا ان ننتشل اولئك المهاجرين من وضعهم البروليتاري الخاص لنمكنهم من الاندماج بالمجتمع الاميركي» . لقد نجحت هذه العملية نجاحاً كبيراً ولكنها جندت جميع اليسوعيين الاميركيين وصرفتهم مدة طويلة عن الاشغال العقلية التي ما زالت الرهبانية توليها عناية خاصة .

ولكن اليسوعيين الاميركيين قد عوضوا عن ذلك التقصير . مثال ذلك الاب جون كورتني موري المتوفى عام ١٩٦٧ والذي كان في آن واحد لاهوتياً وفيلسوفاً وكاتباً وحقوقياً وحاملا لعدة القاب اكاديمية منحته اياها تسع عشرة جامعة اميركية ، كما كان عضواً في عدة لجان حكومية

وخبيراً من خبراء مجتمع الفاتيكان الثاني . ان هذا الاب اليسوعي قد خدم كنيسته وبلاده وخدم الحرية بصورة خاصة . وقد جاء عنه في دليل الرهبانية ما يلي : «ان ملايين من البشر لن يعرفوا ابداً الى اي حد يدينون بحريتهم لهذا العالم المناضل. وقد قام مجمع الفاتيكان الثاني بتكريس ما قاله بصدد الحرية الدينية : «ان حق الحرية الدينية لا يجد اساسه في الكنيسة او في الدولة او في المجتمع بل في كرامة الشخص البشري نفسه » . والواقع ان الاب موري كان اهم من اوحى بالبيان الذي اصدره المجمع عن الحرية الدينية .

لقد اعرب اللاهوتي البروتستنتي راينهولد نيبور عن رضاه بان يصبح «فرسان المملكة البابوية» من انصار الحرية. ثم دعا البروتستنت الى الاعتراف بحيوية رهبانية ارشدت الكنيسة في الجهد الذي بذلته للتكيف مع الديموقراطية الحديثة ، كما انها في مدارسها الرعوية قد حققت الاندماج العنصري قبل ان تقرره المحكمة العليا بكثير .

ويبدو ، في ما يتعلق بالاندماج العنصري ، ان رئيس الرهبانية العام ليس مسروراً من اليسوعيين الاميركيين بقدر سرور اللاهوتي البروتستنتي. ففي رسالة صيغت كأنها أمر يومي من قائد الى جنوده يطلب الرئيس العام بلهجة حازمة الى اليسوعيين الاميركيين ان يقوموا في هذا المجال باعمال تفوق ما فعلوه في الماضي . انه بالطبع يشيد ببعض المناضلين في سبيل المساواة العنصرية كالاب جون لافارج والاب جون ماركو ولكنه يضيف بقوله : «من دواعي الألم ان نذكر ان بعض بيوت اليسوعيين الاميركيين كانت قبل الحرب الاهلية تحوي عبيداً من الزنوج . ومن المخزي التذكير بان بعض المؤسسات اليسوعية لم تكن ، منذ مدة غير طويلة ، تقبل في صفوفها زنوجاً من المؤهلين» ... . وبعد ذلك يقوم الرئيس باعطاء تعليماته التي يمكن اختصارها كما يلي :

١ ــ عليكم ان تحصوا مواردكم البشرية والمادية وان تركزوا جهودكم على المشكلة العنصرية .

٢ ــ عليكم ان تكتسبوا خبرة شخصية بالاوساط الفقيرة وبمشكلة

التمييز العنصري وان تهيئوا الخبراء في هذين المجالين .

٣ ــ من المقلق الا يكون في صفوف اليسوعيين الاميركيين سوى عدد قليل جداً من الزنوج ، وعليكم ان تبذلوا كل جهد ممكن لتغيير هذا الوضع .

٤ ــ عليكم ان تناضلوا في سبيل حقوق الجميع في المسكن اللائق والمساواة في العمل والترقية بحسب الاستحقاق الشخصي والتمتع بالخدمات وبشروط الحياة الصحية .

٥ ــ في العقود التي تجرونها لا تتعاملوا الا مع مؤسسات تطبق مبادىء العدل في ميدان العمل .

٦ ــ اعملوا على نسف حواجز التمييز والافكار المسبقة المنافية للاخلاق المسيحية .

٧ ــ عليكم ان تقيموا دوراً لكم في احياء الزنوج .

٨ ــ عليكم ان تتعاونوا مع جميع من يناضلون في سبيل الاهداف نفسها ، ان كانوا مؤمنين ام غير مؤمنين .

٩ ــ عليكم البدء بتنفيذ هذه التعليمات فوراً ...

يسوعيون للعام ٢٠٠٠

العالم فسيح واليسوعيون «يعلمون جميع الامم» . واي تحقيق يبغي تتبعهم من الالف الى الياء يشمل جميع بلدان العالم ويستغرق حياة كاملة . لنكتف اذن بانهاء تحقيقنا هذا في روما ، في الرقم ٥ من بورغو سانتو سبيريتو حيث مقر رئيس الرهبانية العام .

البيت واسع وبسيط جداً . واليسوعيون البارزون الذين يؤلفون اركان حرب الرهبانية لا يتمتعون في غرفهم بالماء الجاري . اما المسؤول عن هذا الازعاج فهو الاب ليدوخوفسكي (المتوفى عام ١٩٤٢) احد الرؤساء العامين السابقين الذي قال ذات يوم : «لن نقبل بادخال الماء الجاري الا بعد ان تكون جميع دور الرهبانية قد حظيت به ». واليوم

نجد جميع دور الرهبانية تستخدم الماء الجاري ، ولكن كبار المسؤولين في الرهبانية ما زالوا يغسلون وجوههم في الطشت . ذلك ان هناك مجالات اخرى لانفاق المال هي اهم بكثير .

ومع ذلك فان ثروة اليسوعيين ثروة اسطورية ، اسوة بما يتمتعون به من سلطة . لا شك في ان لديهم املاكاً كثيرة وموارد مالية جيدة ، ولكن لديهم بصورة خاصة اداريون ممتازون يضاهون افضل الاختصاصيين في شؤون المال . مثال ذلك ان المسؤول عن الشؤون المالية في اقاليم فرنسا اليسوعية قد شعر مسبقاً بكارثة شركة قناة السويس فباع الاسهم التي في حوزته قبل ان تنهار اسعارها . ومن الصعب اليوم على الرهبانية ان تكدس المال . ذلك انها تنفقه بأسرع مما تحصل عليه . مثال ذلك ان الثروة الصغيرة التي تربحها من بيع كتب اللاهوتي كارل وانر تذهب الى روما ليبنى بواسطتها مركز جديد لليسوعيين في احد بلدان العالم الثالث حيث ينتشر الفقر . وهناك مسؤوليات غير منظورة ما زالت تقع على عاتق الرهبانية التي لا تنقطع البتة عن مساعدة العائلات. فهي تعيل آباء وامهات الرهبان عندما يصبحون بلا مورد وبذلك يصبح اهل اليسوعيين اولاداً للرهبانية .

ان الاب بدرو اروبي هو الرئيس العام الثامن والعشرون للرهبانيةوهو مرهق بالعمل . ها انه قد عاد من احدى رحلاته وعليه ان يدرس عدداً كبيراً من الملفات وان ينطلق في رحلة جديدة . اما الاب جيولياني معاون الرئيس العام لشؤون الاقاليم الفرنسية فهو يحميه من الازعاج ويقول للزائرين : «ارجوكم ، لا تأخذوا من وقته اكثر من اللازم». وسبب هذه التوصية في الواقع ان صبر الرئيس العام لا حد له وان بامكانه ان يتحدث مع زائره طول الليل اذا لم يشأ الزائر مغادرة المكتب . اما غرفة الاب اروبي فهي في آخر الرواق . وعندما يقرع الاب جيولياني الباب هناك اشارة ضوئية تأذن بالدخول . وينهض الرئيس العام عند ذاك ويتقدم نحوك ويده ممدودة ووجهه طافح بالبشر .

شاهد من شهود هيروشيما

ان الاب اروبي هو في السبعين من عمره وهو من بلاد الباسك في اسبانيا ، موطن مؤسس الرهبانية القديس اغناطيوس دو ليولا ، وهو يشبهه في صلعته وفي سحنته الجانبية . لقد درس الطب قبل دخوله الرهبانية وعاش سبعة وعشرين عاماً في اليابان حيث لليسوعيين داران في هيروشيما ، احداهما في وسط المدينة والاخرى في المنطقة المحيطة بها . وكان الاب اروبي في الدار الثانية صباح السادس من آب عام ١٩٤٥ ، يوم انفجرت اول قنبلة ذرية فوق المدينة . ويقول الاب اروبي في وصف الانفجار : «شهدت وميضاً ابيض هائلاً وسمعت ضجة كهدير الشلال وتناثرت الدار في الهواء» .

ولم يجرح احد من اليسوعيين الخمسة والثلاثين الذين كانوا موجودين في الدار . وبعد ظهر ذلك اليوم انطلق الاب اروبي الى قلب المدينة المشتعلة ولم يبلغها الا بعد خمس ساعات فوجد اليسوعيين الخمسة القاطنين الدار الثانية ما زالوا على قيد الحياة . وفي كتاب عن ذكرياته يصف الرئيس العام لليسوعيين ما شاهده . والواقع ان جهنم كما وصفها دانتي ما هي الا شرارة صغيرة ازاء المشاهد التي يصفها الاب اروبي . فهناك طفل جمدته احد الاحجار الكبيرة كان رازحاً تحته وكان يرى ألسنة اللهيب تقترب منه فأخذ يصرخ بشكل مخيف . وعندما تمكن الاب اروبي من سحب الطفل كانت رجلاه قد احترقتا كلياً . وفي هذا الكتاب ايضاً مقاطع لا يمكن تحملها ويتساءل القارئ القليل الايمان اين كان الله في ذلك اليوم ... ويتابع الاب اروبي قائلاً : «كم يشعر الانسان بعمق وجود الله وهو في المصيبة» . ثم نراه يصلي الى «الذي يهدئ امواج البحر وألسنة اللهيب» . وتذكر الاب اروبي دروسه الطبية فقام بتحويل دار اليسوعيين الى مستشفى واخذ يجري العمليات الجراحية بنفسه . وعندما كانت الجراحة تتيح له بعض اوقات الفراغ كان يتجه الى المدينة مع عدد من اليسوعيين ليحرقوا الجثث بالمئات .

اما اليوم فان الاب اروبي يخوض معركة من نوع آخر . فهو يقود ، من مكتبه البسيط الاثاث ، جيشاً مؤلفاً من ثلاثة وثلاثين الف يسوعي عاملين في جميع انحاء العالم . والواقع انه ليس من السهل السيطرة على جبهة بهذا الاتساع وعلى قوات بهذا القدر من التوزع .

ويقول الاب اروبي بهذا الصدد : «انا لست قائداً واليسوعيون ليسوا بجنود ونحن لا نحارب احداً . نحن رهبان يخدمون الكنيسة والبشر وهذه ليست بمهمة سهلة في عالم اليوم . ان الاوضاع تختلف كثيراً بعضها عن بعض ولا يمكننا ان نعمل بفعالية اذا لم نتكيف مع الظروف في كل مكان . كذلك علينا ان نتمثل الثقافات المحلية لانه لا يمكن تلقي الانجيل الا من خلالها وقد نجحنا دوماً في هذه المهمة . ولكن علينا ان نتحاشى الافراط في التنوع لان هذا يسيء الى وحدة الرهبانية .

ومن جهة اخرى فان روح الاحتجاج الذي يهب على الكنيسة قد تسلل الى صفوف اليسوعيين وهناك عدد منهم قد اتخذوا مواقف تنافي روح الطاعة باشكال مختلفة . فمنهم من ترك الرهبانية ومنهم من طرد منها فهل في ذلك سبب للقلق ؟

فيجيب الاب اروبي : «هناك بالفعل كهنة يفقدون ثقتهم برسالتهم الدينية . وهذه ظاهرة عامة لكنها اصابت رهبانية اليسوعيين اقل مما اصابت سائر الرهبانيات ... اما الاحتجاج ... فان نتائج «الدراسة» الاولى قد ابرزت قدراً مدهشاً من المطالب والتطلعات . وهي في كثير من الحالات دليل على مزيد من التشدد اكثر مما هي تعبير عن القلق او الاستياء . انها تبرر وجود قوى ووجود حيوية عظيمة الفائدة . وعلينا ان نوجه كل ذلك في سبيل خير الرهبانية الاعظم» .

وفي اميركا اللاتينية كما في بلدان اخرى ، يناضل اليسوعيون علناً من اجل انشاء نظام اجتماعي جديد . فهل في ذلك تدخل في شؤون تلك البلاد السياسية ؟

فيجيب الاب اروبي : «ان رسالتنا ليست سياسية بل دينية وهي تقضي علينا ان نتدخل عندما نجد انفسنا ازاء وضع من الظلم او وضع

غير انساني . مثال ذلك التمييز العنصري او الشروط المزرية التي ما زال يعيش فيها عدد هائل من البشر ، والتي لا بد ان تستدعي غضب الله بسبب ما فيها من وجه مشين . اننا لا يسعنا ان نحل محل السلطة السياسية ولكن من واجبنا عند الاقتضاء ان نذكرها بشريعة الله التي هي فوق كل الشرائع البشرية . وعندما كنا في الماضي ننسى القيام بهذه المهمة لاننا كنا بشكل من الاشكال مرتبطين بحكام تلك العصور ، فاننا كنا لا نقوم بمهمتنا . ان روح المسيح ، اي روح العدل والمحبة ، هو الذي يحدد موقفنا من القضايا الاجتماعية ومن واجبنا ان نبث هذا الروح في قلوب الناس وفي ضمائرهم .

ومن جهة اخرى فان الدعوات الدينية في انخفاض مستمر وكذلك عدد اليسوعيين . ففي فرنسا مثلا ، كان في صفوف الرهبانية عدد كبير من خريجي مدرسة البوليتكنيك العليا ، اي حوالي ثلاثين يسوعياً . ولكن الرهبانية لم تستقبل منذ عام ١٩٥٦ اي خريج جديد من خريجي هذه المدرسة الشهيرة .

ملح الارض

ويجيب الاب اروبي على ذلك مبتسماً : «هذا مؤسف جداً لاننا نحب كثيراً خريجي البوليتكنيك . ان انخفاض عدد الدعوات الدينية يشغل بالنا بالفعل ولكن هذه الدعوات في ازدياد ملحوظ في البلدان التي تضطهد الكنيسة او في بلدان العالم الثالث كالهند . اما ان يكون اليسوعيون كثيري العدد ، فهذا اقل اهمية من ان يكونوا يسوعيين حقيقيين . واذا عرفنا كيف نكون ملح الارض فالله لن يترك الارض بدون ملح . وغني عن القول ان علينا ، في اعدادنا يسوعيي اليوم ، ان نأخذ بعين الاعتبار التطور المدهش الذي شهده العالم ، والا ننسى بانهم سيكونون يسوعيي العام ٢٠٠٠» .

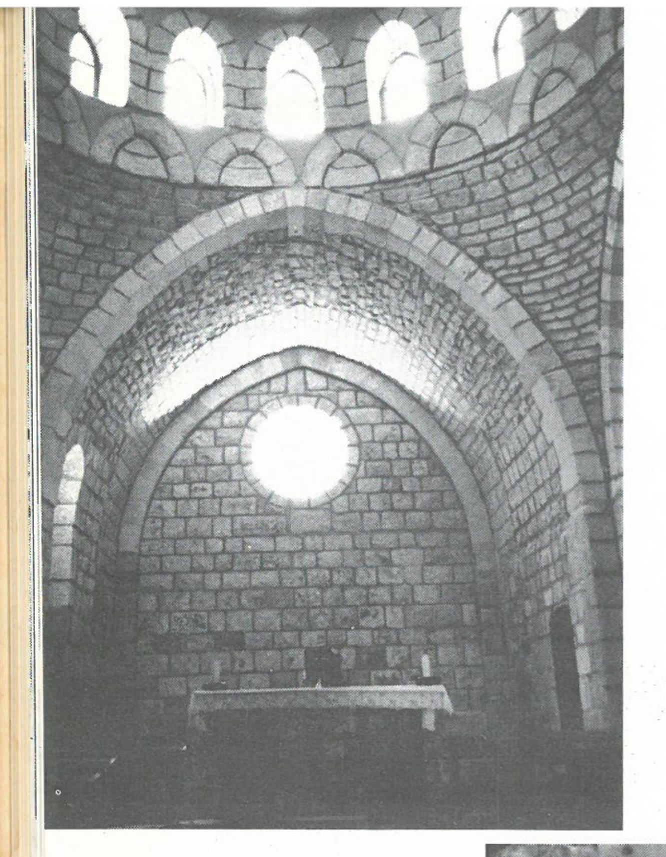
اما اذا نظرنا الى العام ٢٠٠٠ ، فرهبانية اليسوعيين لا تكتفي باعداد



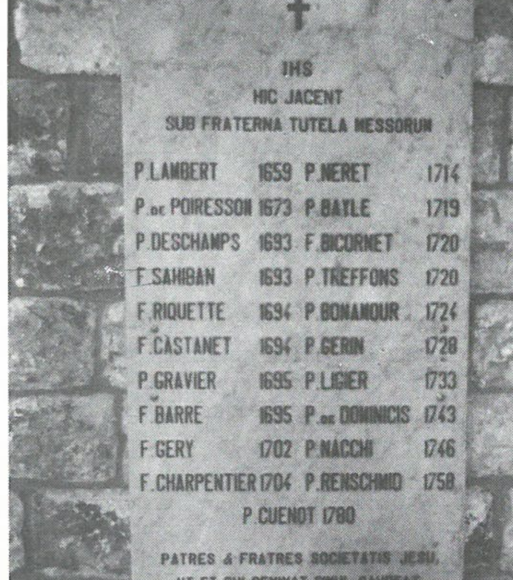
سيدة النجاة في بكفيا ، أقدم اديرة اليسوعيين الموجودة حالياً في لبنان (١٨٣٣)

رهبانها . فهي في الواقع تعد ايضاً الاساقفة والكرادلة وربما ايضاً البابوات. فالجامعة الغريغورية في روما ، وهي اشهر مؤسسة يسوعية ، قد تخرج منها ١٧ قديساً و ٣٣ طوباوياً و ١٤ بابا ، منهم البابا بولس الثاني عشر والبابا بولس السادس ، بالاضافة الى عدد كبير جداً من الكرادلة .

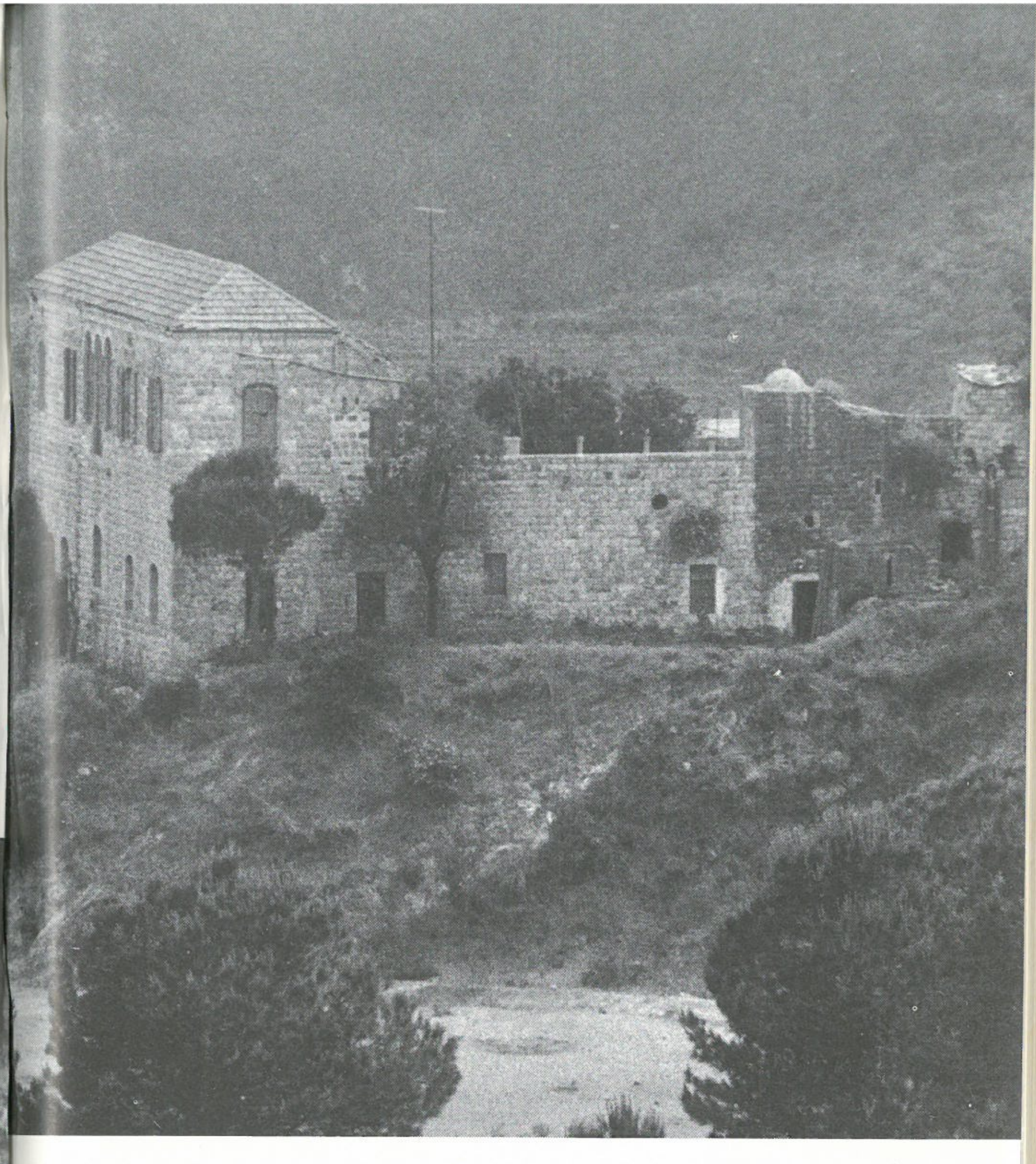
وعندما انتخب الاب اروبي رئيساً عاماً للرهبنة قيل ان اختياره قد تم نظراً لما لديه من خبرة واسعة في شؤون العالم غير الكاثوليكي. أليس من المستحسن ايضاً ان يكون خليفة القديس اغناطيوس في عصر الذرة شاهداً من شهود هيروشيما ؟



عينطورا : اول كنيسة شيدت
في القرن الثامن عشر باشراف
الآباء اليسوعيين



لائحة باسماء اليسوعيين الأُول
الذين خدموا في لبنان . بلاطة
على مدفنهم في كابيلا كلية
عينطورا



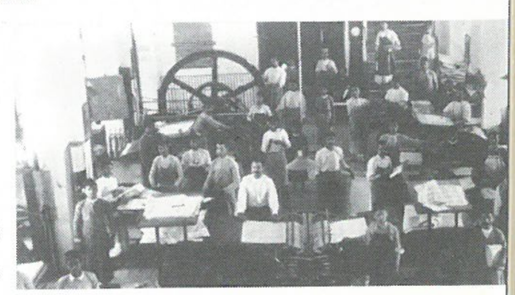
أول دير لليسوعيين في عينطورا وقد اصبح في عهدة اللعازاريين ورثة اليسوعيين
الأُول في القرن الثامن عشر



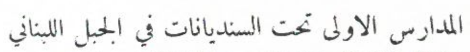
جامعة القديس يوسف
(الواجهة الرئيسية)



شارع جامعة القديس يوسف
في القرن التاسع عشر

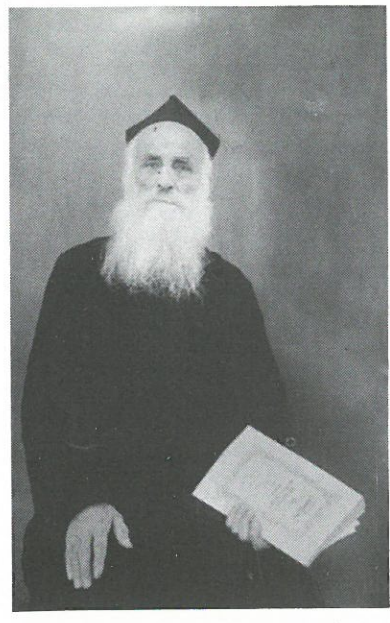


المطبعة الكاثوليكية في القرن التاسع عشر:
عمال يحيطون بالآلات الطباعية الاولى



المدارس الاولى تحت السنديانات في الجبل اللبناني

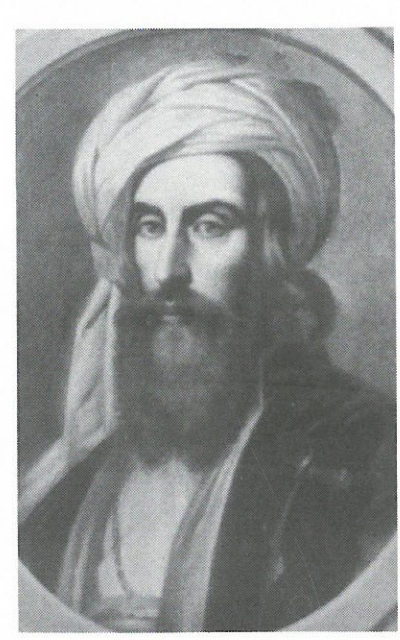




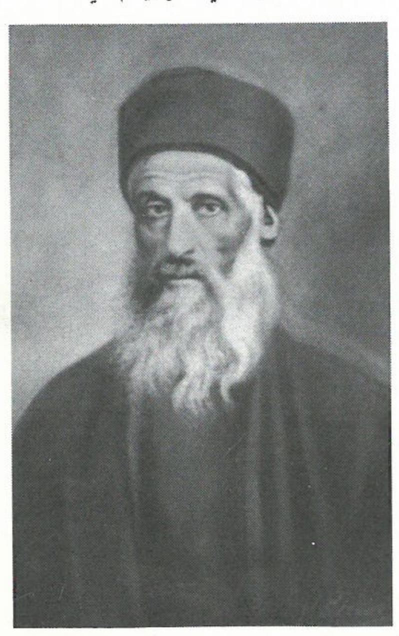
الاب انطوان صالحاني اليسوعي
(١٨٤٧ – ١٩٤١)



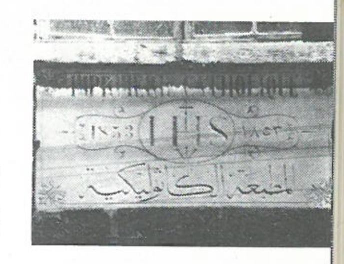
الاب بول ماري ريكادونا اليسوعي
(١٧٩٩ – ١٨٦٣) . اول رئيس عام
(للرسالة الجديدة في سوريا) في ١٨٣١



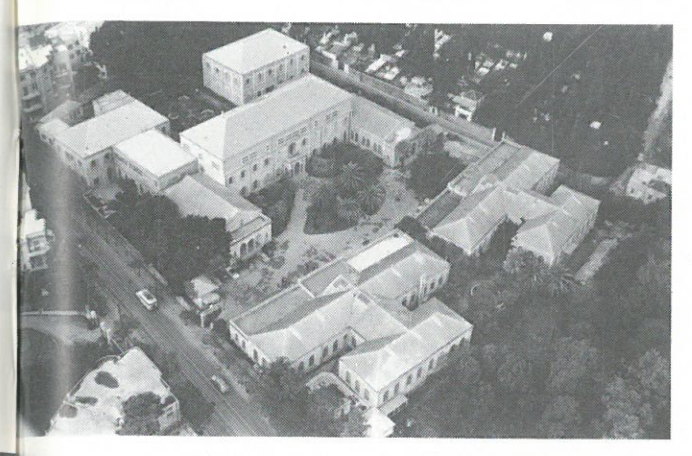
الاب ماكسيميليان ريللو اليسوعي (١٨٠٢ – ١٨٤٨).
البولوني الاصل ورئيس الرسالة في سوريا من ١٨٣٩
الى ١٨٤١ . توفي في الخرطوم (السودان)



الاب ريمون ايستير اليسوعي
(١٨٠٥ – ١٨٧٣) الذي جلب الى بكفيا
صورة سيدة النجاة



لوحة من الرخام على مدخل باب المطبعة الكاثوليكية
في بيروت وهي تحمل تاريخ تأسيسها



كلية الطب
مشهد من الجو
للمصور نالتشايان



اعمال مخبرية في
كلية الطب الفرنسية
سنة ١٩٠٩

اعمال مخبرية في
كلية الطب الفرنسية
سنة ١٩٧٠



الاب ماديت عميد كلية الطب الفرنسية في اجتماع مع معاونيه الابوين فلاميت ودوماس





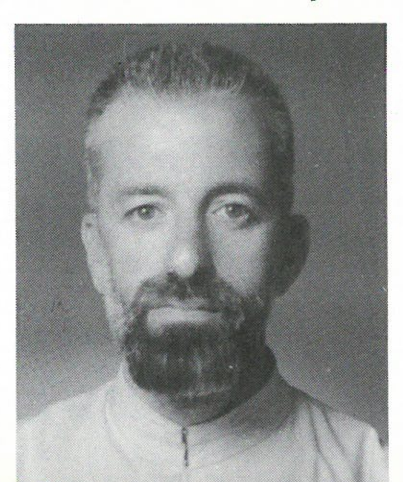
الخلف الحالي للاب كلافيوس :
الاب جاك بلاسار في كساره

في ورشة بناء المدرسة العليا للهندسة في الدكوانة : الاب فرنسيس هورس والاب ألبان دو جيرفانيون اثناء مباركة المشروع لدى مباشرة العمل (٢٦ حزيران ١٩٧٠)

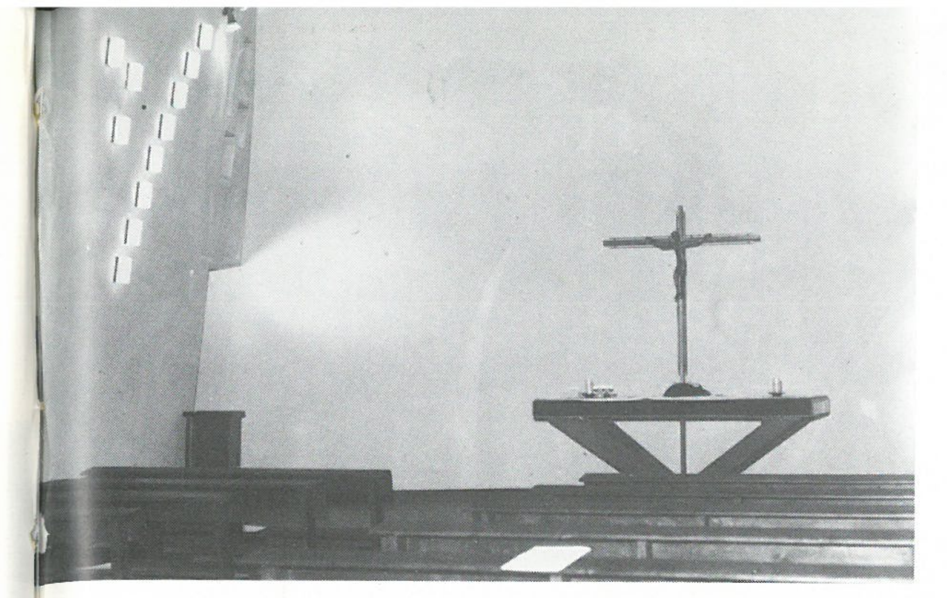




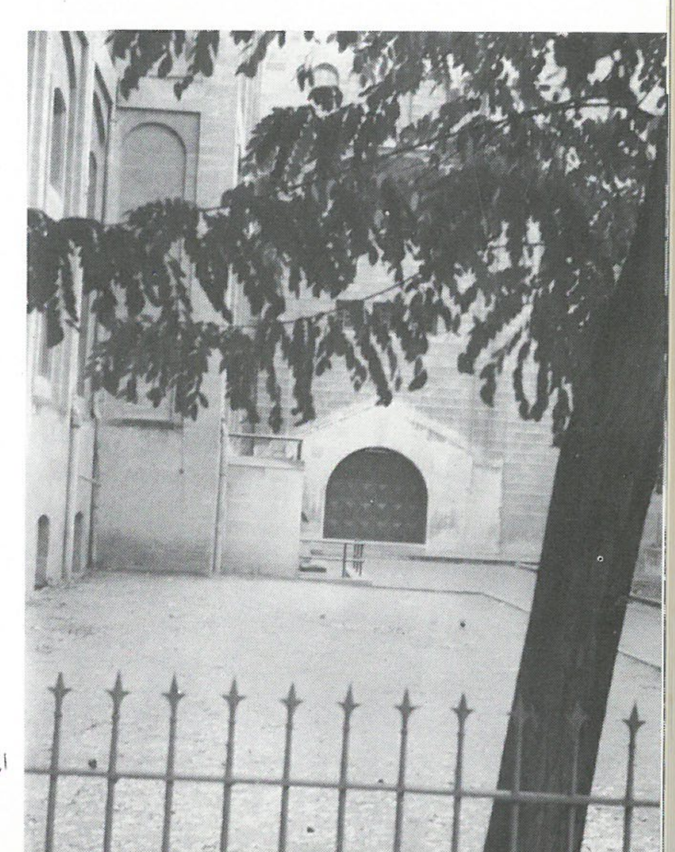
الاب فرنسيس هورس الرئيس الاقليمي لليسوعيين في الشرق الادنى



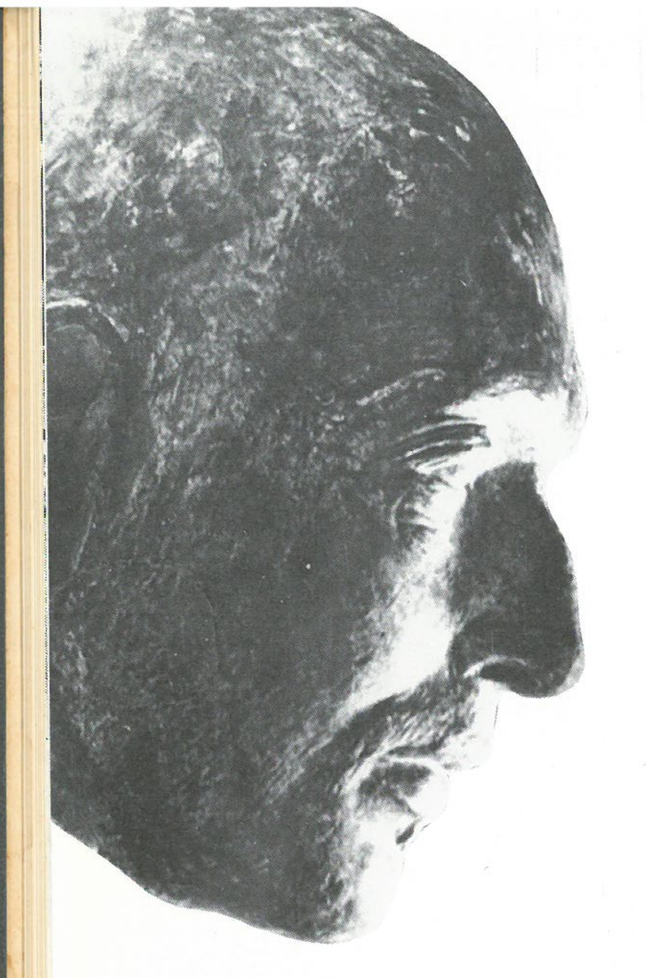
الاب انطوان مساميري ،
الرئيس الاقليمي لسوريا



كلية الحقوق ، مشهد من الداخل للكابيلا

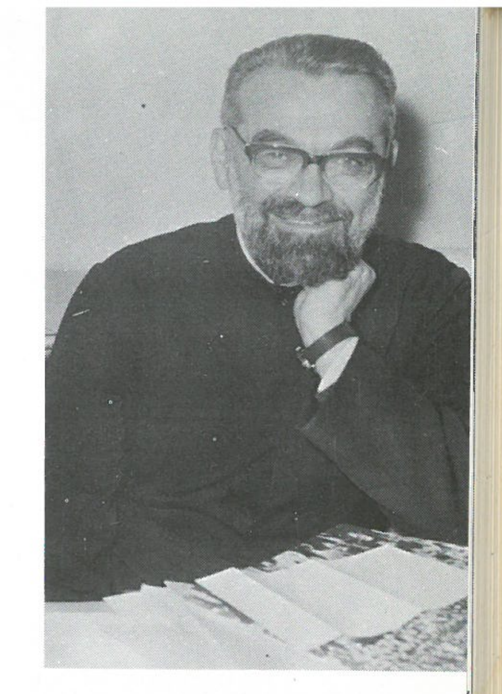


المكتبة الشرقية ، بيروت



قناع القديس اغناطيوس دو ليولا (صورة جانبية)



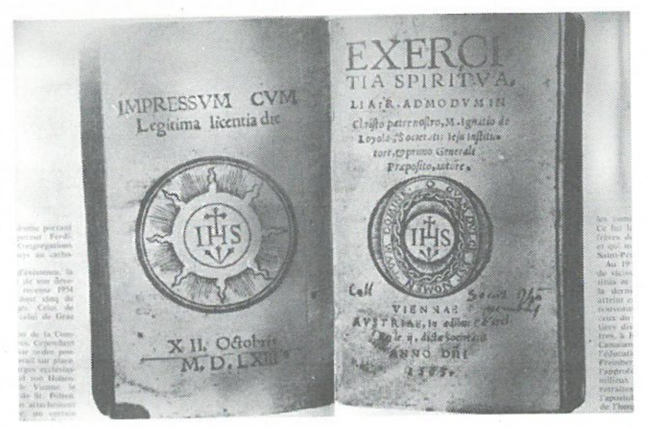


الاب عبدالله داغر ، الرئيس الاقليمي للبنان

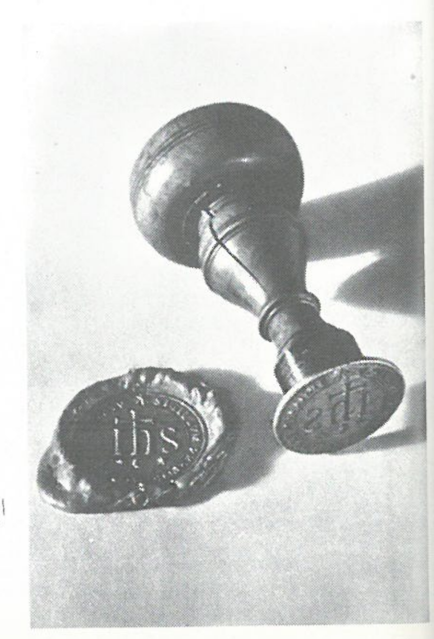
الاب زيموكول ، الرئيس
الاقليمي للجمهورية العربية المتحدة

قناع الدفن على وجه القديس اغناطيوس دو ليولا (الوجه)

قناع الدفن على وجه القديس اغناطيوس
(بمعدل الثلاثة ارباع)



كتاب اساسي : باعث روحانية جديدة . الرياضات الروحية المعمول بها (غير المكتوبة) تمنح عزيمة جديدة للنفوس . من طبعة قديمة (١٥٦٣)

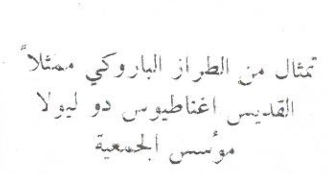


الجمعية اليسوعية حاملة شعار اليسوعيين

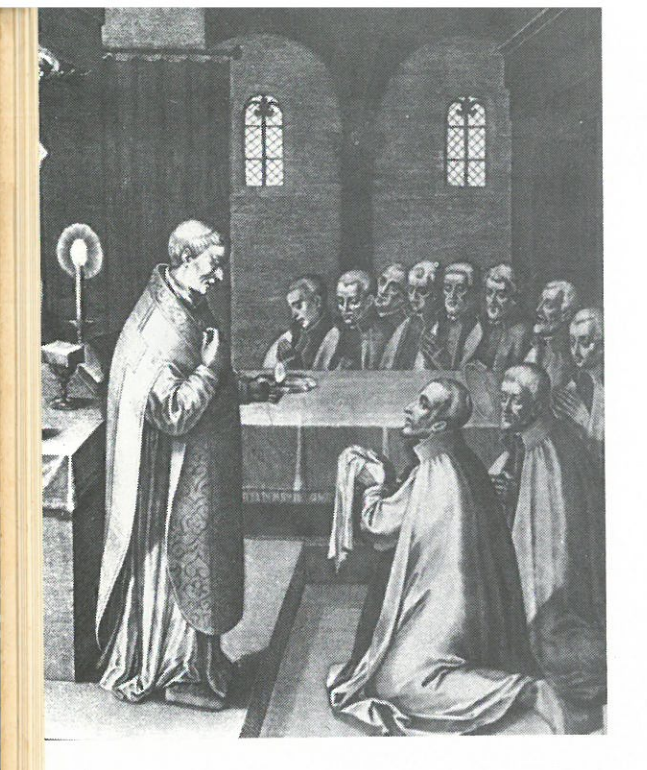


نقش قديم ممثلا الاب كلافيوس الفلكي الشهير (١٥٣٧ – ١٦١٢) الذي حدد اسماء الاماكن القمرية التي استعان بها رواد ابولو ١١





تمثال من الطراز الباروكي ممثلاً القديس اغناطيوس دو ليولا مؤسس الجمعية



القديس اغناطيوس ورفاقه الأُول . النذور التي ارتبطوا بها في كنيسة الشهداء في مونمارتر الموجودة آنئذ في ضواحي باريس (حفر حجري قديم). على مذبح الطوباوي بيار فافر اليسوعي ساجداً . وقبله القديس اغناطيوس



كنيسة يسوعية . البعثة اليسوعية في اميركا اللاتينية (الباراغواي)





القمر مع اسماء الاماكن التي ما يزال يستخدمها رواد الفضاء . وكانت هذه من وضع الفلكيين اليسوعيين الذين كان اشهرهم الاب كلافيوس

في الشرق الأدنى

لم يكن الشرق غريباً عن خطة اغناطيوس دو ليولا ، والشرق موطن يسوع الذي شرّف رهبانيته بالانتساب اليه ، والشرق محجّة آماله بين انعكافه في مغارة منريز ، والعودة الى مقاعد الدراسة . وقد نال من الحبر الأعظم براءة بانشاء ثلاث كليات في القسطنطينية ، والقدس ، وقبرص . الا ان الظروف لم توأته في تحقيق ذلك .

فتأخر وصول اليسوعيين الى الشرق بضع عشرات من السنين . حتى كانت السنة ١٥٧٨ ، على عهد الامير قرقماز المعني ، فشهد لبنان اول يسوعيين ينزلان في الشرق وهما الابوان يوحنا المعمدان اليانو ، وتوما رجيو . وكان طبيعياً ان يُوفَدا الى الموارنة ، وهي الطائفة المسيحية الشرقية الوحيدة التي كانت على صلة مع رومة منذ القدم ، تعتقد ما تعتقده الكنيسة الكاثوليكية ، وتخضع لرئيسها بابا رومة . فرأى هذا وكان اذ ذاك غريغوريوس الثالث عشر ان يتفقدهم ، ويطلع على احوالهم ، فاوفد اليهم اليسوعيين المذكورين . فحضرا المجمع الماروني الذي التأم في قنوبين في ١٥ آب ١٥٨٠ ، بدعوة من البطريرك ميخائيل الرزّي .

واسفرت الوفادة عن انشاء مدرسة الموارنة الشهيرة في رومة ، سنة ١٥٨٥ ، التي عهد الحبر الأعظم بادارتها الى الآباء اليسوعيين. فاشرفوا عليها نحو قرنين ، حتى الغاء رهبانيتهم سنة ١٧٧٣ ، وخرّجوا منها جلّة من كبار بطاركة الطائفة ومطارنتها كالدويهي ، واسطفان ، وعدداً من

كبار المستشرقين واساتذة اللغات الشرقية في مختلف جامعات اوروبة امثال الصهيوني ، والحصروني ، والحاقلاني ، والغزيري ، والسماعنة . وكان خرّيجوها العائدون الى لبنان في أسّ النهضة الثقافية العربية .

وفي اختتام القرن السادس عشر ، على عهد فخر الدين الثاني ، استقبل البطريرك الماروني موفداً جديداً للحبر الأعظم هو الاب جيروم دنديني اليسوعي . فدرس حالة البلاد في مختلف مظاهرها : دينية ، وسياسية ، واقتصادية . وكان من نتائج تقريره تأسيس خمسة اديار في «بلاد ابن معن» وجوارها ، مجموعة باسم «رسالة سورية» . وكان اولاها دير حلب (١٦٢٥) ، ثم دمشق (١٦٤٣) ، ثم طرابلس وصيدا (١٦٤٤) ، ثم دير عينطورا (١٦٥٧) . وكان اتجاه المرسلين الاولين — ولم يتجاوز عددهم العشرين — نحو الطوائف المسيحية المنفصلة عن رومة . وهو يعلّل بدأهم بالحواضر الشامية الكبرى . فاقاموا يعظون ، ويجادلون ويؤلّفون ، ويترجمون ، وينشئون «الأخويات» ، ويدعمون كل من يظهر ميلاً نحو رومة من ابناء الاكليروس الشرقي المنفصل ، ملكياً كان ام سريانياً ، ام ارمنياً ، ام نسطورياً . فيسعى الاب كيروت حتى يكتسب صداقة البطريرك الملكي افتيموس الثاني الكرمي ، ويشجعه على الانتقال الى الكثلكة . ويقيم الاب فرزو مع رهبان البلمند سلسلة من المناقشات والمحاضرات تسفر عن ذهاب تسعة منهم لانشاء اول دير للروم الكاثوليك ، وهو دير مار يوحنا الصابغ في الشوير . ويعمل الاب كويسه على اقناع مطران حلب اليعقوبي ميخائيل جروه ، فيصبح اول بطريرك على السريان الكاثوليك . وهناك الاب فروماج الذي يملأ ذكره الحوليات الدينية في القرن الثامن عشر تأليفاً ، وترجمة ، ووعظاً ، وتبشيراً ، ومجادلة ، واهتماماً بانشاء مطبعة عبدالله زاخر في الشوير .

وقد وجد هؤلاء المبشرون ، الغير على نشر العقيدة الرومانية في الكنائس الشرقية المنفصلة ، خير معوان في الاكليروس الماروني فاقبل المثقفون من الموارنة ، ولا سيما خريجو مدرستهم في رومة ، على مساعدة المرسلين ترجمة ، وتأليفاً ، وطباعة ، كما فتح رؤساء الطائفة اديارها

ومدارسها للمبتدئين والطلبة . وهذه مدرسة مار الياس عينطورا الساعي بانشائها الاب بطرس مبارك الماروني اليسوعي ، تستقبل منذ تأسيسها ، سنة ١٧٢٨ ، مبتدئي الأقباط والكلدان ، الى جنب ابناء الطائفة ، وكان الامراء الشهابيون يستقبلون بالترحاب اللاجئين من بلاد سورية ، على اثر ارتدادهم الى الكثلكة فينزلونهم في دير القمر والزوق وغيرهما من الاوساط الصناعية والتجارية ، كما كان مشايخ كسروان من آل الخازن يخصون بهم الاوقاف . وهكذا نلمس التعاون الوثيق المثمر بين اليسوعيين والموارنة في نشأة الطوائف الشرقية الكاثوليكية .

بيد ان هذا العمل الرسالي النشيط انتهى عهده بالغاء الرهبانية اليسوعية سنة ١٧٧٣ . فترك ابناؤها الشرق بعد ان سلّموا منشآتهم للعازاريين ، ولا سيما عينطورا التي جعل منها هؤلاء مدرستهم المزدهرة منذ السنة ١٨٣٤ .

عودة اليسوعيين

واعيدت الرهبانية سنة ١٨١٤ ببراءة من البابا بيوس السابع . فاتفق بطاركة الطوائف الكاثوليكية الجديدة : اغناطيوس قطّان الملكي ، وغريغوريوس بطرس جناريان الارمني ، واغناطيوس — سمعان هندي السرياني ، مع البطريرك الماروني يوحنا الحلو على طلب عودة اليسوعيين الا ان الظروف لم تسمح بتلبية الطلب الا سنة ١٨٣١ . فنزل في بيروت في ١٤ ايلول من السنة نفسها ثلاثة يسوعيين : الابوان ريكادونّا وبلانشيه ، والاخ هنزه .

على ان هدف الرسالة الثانية تغيّر بعض الشيء عن هدف الاولى . ذلك ان مرسلي البروتستان ، انكليزاً وأميركاناً ، كانوا قد سبقوا اليسوعيين الى الشرق الأدنى وجعلوا من لبنان منطلق عملهم التبشيري . فكان على اليسوعيين ان يذكروا غاية تأسيسهم ويعملوا على تطبيقها في الشرق الادنى . ومن هنا كان الاتجاه الجديد نحو التربية والتعليم ،

والتأليف ، والنشر ، وتكثيف الثقافة الانسانية دينياً وخلقياً وادبياً ، بتعليم اللغات الاوربية الحديثة والانفتاح على العالم ، للصبيان وللبنات كذلك . هذا مع الاهتمام الدائم بترتيب الوعظ والتبشير ، وتوسيع مجال الاخويّات ، وتنظيم الرياضات الروحية .

وكانت اولى محطاتهم ، في هذا الشوط الجديد ، بلدة بكفيا . وذلك بدعوة من الامير حيدر ابي اللمع . فأنشأوا فيها ديرهم القديم ، سنة ١٨٣٣ ، يشرفون منه على بلاد المتن ساحلا وجبلا . وكان ثاني اديرتهم في معلقة زحلة ، في السنة نفسها ، بتوصية من الامير بشير الكبير . ومن هنالك ينتشرون على قرى البقاع ، ومناطق المتن الأعلى ، لا يضيرهم ان يتزيّوا بزيّ سكان البلاد ، ويتكلّموا لغتهم ، ويتخذوا عاداتهم . وهكذا انتشرت مدارسهم الابتدائية في غضون القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، حتى لم تبق بلدة كبيرة في لبنان الا وفيها مدرسة يديرها ، او يزورها ، اليسوعيون .

وقد ذكرنا من همّهم الاول تعليم البنات ولهذه الغاية استقدموا «راهبات القديس يوسف الظهور» سنة ١٨٤٦ ، ثم راهبات الناصرة . بيد انهم اخذوا يعملون على انشاء رهبانية لبنانية للاوانس ، على غرار ما كان قد اسهم فيه الاب بطرس فروماج بانشاء «راهبات الزيارة» المارونيات ، انما بتوجيه تربوي . فجمعوا بين جمعية «المريمات» المنشأة في بكفيا في اول السنة ١٨٥٣ بسعي الخوري يوسف الجميل ، معاون اليسوعيين منذ وصولهم الى بلدته ، وجمعية «بنات قلب يسوع» التي انشأها الاب ريكادونا في معلقة زحلة حوالي سنة ١٨٥٧ . فكان من ذلك مؤسسة «راهبات قلبي يسوع ومريم» الآخذة باطراد الازدهار منذ السنة ١٨٧٥ ، تعليماً وتهذيباً ، وارشاداً ، وتربية بيتية ، وتدبيراً منزلياً ، وتمريضاً ، وادارة مستوصفات ومستشفيات ، حتى تجاوزت اعمالها لبنان وسورية الى بلاد المغرب والجزائر بل الى قلب افريقية في تشاد .

اما التعليم الثانوي فقد باشره اليسوعيون في غزير سنة ١٨٤٣ ، في مدرسة اكليريكية لم تلبث ان فتحت ابوابها للعلمانيين كذلك . وغدت

كلية منذ السنة ١٨٥٥ ، مستندة من اللغات الاجنبية الى اللغة الايطالية اولا ، وهي لغة لبنان الدولية منذ عهد المعنيين ، حتى السنة ١٨٤٧ ، وفيها بدأ تقدم الفرنسية المنافسة ، على الرغم من تردّد الرئيس الاب بلانشيه ، الفرنسي الجنسية ، ومن تحفظ القاصد الرسولي . ذلك ان الرجلين كانا يريان في اللغة الفرنسية اداة لنقل الافكار الثورية الجديدة ، اذ ذاك ، بخلاف الايطالية اداة الاستقرار والمحافظة .

وكانت بيروت قد اخذت تتّسع ، وتزداد سكاناً وحركة تجارية ، ولا سيما بعد حوادث السنة ١٨٦٠ . فاخذ قناصل الدول ينتقلون اليها من صيدا وغيرها من حواضر الساحل . فرأى اليسوعيّون ان ينحدروا اليها كذلك ، ويجعلوا فيها منطلق نشاطهم ، اسوة بمرسلي البروتستان الذين كانوا قد سبقوهم بانشائهم ، في بيروت «كليتهم السورية الانجيلية» . فنقلوا معهدهم من غزير ، سنة ١٨٧٥ ، وسمّوه «كلية القديس يوسف» ، مضيفين الى درجات التعليم الثانوي ، درجة جامعية بانشائهم كلية للفلسفة واللاهوت ، نالت سنة ١٨٨١ ، من البابا لاون الثالث عشر الحق باعطاء رتبة الدكتوراه . فكانت اولى كليات الجامعة اليسوعية .

وبينما كانت فرنسة الرسمية تضطهد الاكليروس الكاثوليكي وتشن حملتها على اليسوعيين خاصة ، كان الاب نورمان اليسوعي يفاوض اثنين من اكبر قوّاد تلك الغارة ، واصلبهم عقيدة ، هما غامبتا وجول فري ، متفقاً معهما على ان بغض الاكليروس ليس من البضائع الصالحة للتصدير . وهكذا نال اليسوعيون الفرنسيون ، سنة ١٨٨٣ ، من فرنسة العلمانية ، مضطهدة اليسوعيين في بلادها ، الحقّ والاعتماد بانشاء كلية طبّ فرنسية في بيروت كانت ثانية كليات جامعة القديس يوسف . ولما نجح هذا التعاون بين الجمهورية الفرنسية والرهبانية اليسوعية ، رأت جامعة ليون الرسمية ان تطبع على غراره فاتفقت مع اليسوعيين على انشاء كلية الحقوق ومعهد الهندسة العالي منذ السنة ١٩١٣ .

وكانت الجامعة قد أسست ، سنة ١٩٠٢ ، «كلية شرقية» للدراسات

اللغوية ، والتاريخية ، والدينية ، والاجتماعية في سبيل تنشئة المستشرقين والباحثين في شؤون الشرق من ابنائه . فاشتهرت حتى الحرب العالمية الاولى ، باساتذتها وبمنشوراتها . ولا تزال آثار الآباء لامنس ، ورونزفال ، ودو جرفانيون ، وجلابرت في إس الدراسات الاستشراقية واستعداد المركز نشاطه بهمة الاب رينه موترد منذ السنة ١٩٣٣ ، متخذاً شكل دراسات وابحاث حتى غدا معهداً متكاملاً السنة ١٩٣٧ ، واستأنف منشوراته كذلك . فكوّنت مع منشورات الكلية السابقة ، وما قام به الاب بويج من اخراجه «مكتبته الفلسفية» . والاب بوادبار من تحرّياته الجوية عن «آثار رومة»، والاب رنيه موترد من جمعه الرقم اليونانية واللاتينية في لبنان وسورية ، خير اداة للدراسات الاستشراقية في بلادنا .

يتمم ذلك ما توصل اليه الاب دالفرني من اسلوب جديد لتدريس اللغة العربية في سبيل طلاّبها من ابناء اوربة واميركة الراشدين . طبقه في «معهد الآداب الشرقية» ، وفي «المركز الديني للدراسات العربية» المنشأ في بكفيا .

وظلت المدرسة الثانوية ، — التي خرّجت نخبة من قادة الرأي والسياسة في البلاد — تابعة لجامعة القديس يوسف ، محتلة قسماً صالحاً من بناياتها ، حتى تمّ لها البناء الجديد الفسيح على تلة الجمهور ، فانتقلت اليها سنة ١٩٥٣ .

ولا يخفى ان من تمام أدوات التعليم ابتدائياً ، وثانوياً ، وعالياً ، التآليف المدرسية ، والطباعة ، والمكتبات .

اما المكتبات فلنذكر في طليعتها « المكتبة الشرقية» التي عمل على جمعها وتنسيقها الاب شيخو منذ السنة ١٨٩٤ ، حتى غدت اليوم اجمع مكتبة تخصّصية للدراسات الشرقية في بلادنا .

واما الطباعة فالمطبعة الكاثوليكية ، المنشأة حجرية سنة ١٩٤٨ ، حرفيّة سنة ١٨٥٣ ، استكملت معدّاتها منذ سنة ١٨٧٠ ، وتابعت تطورها حتى غدت اليوم اهمّ مطبعة في الشرق الأدنى ، واوفرها اتقاناً ، لطبع اللغات الشرقية جميعها عربية ، وسريانية ، وكلدانية ، وعبرية ،

وحبشية ، وقبطية ، فضلاً عن اللغات الاوربية .

وغني عن البيان ان هذه الطاقات من معاهد ، ومكتبات ، ووسائل نشر كان من شأنها ان تجعل اليسوعيين وراء الحركات الثقافية جميعها . فنراهم في تأسيس «الجمعية المشرقية» سنة ١٨٥٠ ، وفي اعداد ترجمة «الكتاب المقدس» سنة ١٨٧٢ ، وفي نشر التآليف العديدة في اللاهوت والفلسفة ، والوعاظة ، والجدل الديني . ثم في نشر الكتب المدرسية التي ظلّت في اساس تدريس اللغة العربية وعلومها المختلفة اكثر من خمسين سنة، امثال «مجاني الادب»، «وعلم الأدب» للاب شيخو الذي اقبل كذلك على نشر الشعر العربي الجاهلي في مجموعته الشهيرة «شعراء النصرانية» ، كما اقبل زميله الاب صالحاني على نشر كثير من النصوص اللغوية القديمة ، ثم ديوان الاخطل متبعاً مخطوطاته على نحو نصف قرن .

وكما كان لليسوعيين فضل في نشر الكتب المدرسية والنصوص اللغوية والادبية ، كان لهم فضل كذلك في عالم المعجمات . فمن قاموس الاب كوش (عربي — فرنسي) الظاهر سنة ١٨٦٢ ، والاول من نوعه في لبنان ، الى قاموس بلو المتعدّد الطبعات والتصحيحات ، الى «منجد» الاب معلوف وما تفرّع عنه ، سلسلة محترمة من ادوات الثقافة العصرية .

ولنشر أخيراً الى مجلة «المشرق » التي انشأها الاب شيخو سنة ١٨٩٨ وما ضمّت في مجلداتها المتابعة حتى اليوم ، من دراسات اصيلة قيمة في لبنان وسائر انحاء الشرق الأدنى تاريخاً ، وآداباً ، وديانات وعادات ، وتقاليد . وما قامت به مع زميلتها جريدة «البشير» اليسوعية كذلك والمنشأة سنة ١٨٧٠ ، من نهضة في عالم الصحافة العربية .

هذا العمل الجاهد المنتج باشره اليسوعيون «لمجد الله الأعظم» وخير القريب ، وهمهم الأول نشر الايمان ، وتهذيب الناشئة ، وصدّ موجات الكفر ، والهرطقة ، في حلقة بدأت مقفلة في اسوار الدير ، وحدود الطائفة ، وآفاق الكثلكة . ثم اخذت تتطوّر بتطور العصر ، وتنفتح بانفتاح العالم اليوم ، حتى غدونا لا نستغرب وجود راهب يسوعي في هيئة اساتذة الجامعة الاميركية ، ووجود راهب يسوعي آخر في اوساط

الطلاّب يرافقهم في قضاياهم المختلفة ، وفي مشاكلهم حتى العقائدية منها على مختلف نزعاتهم وميولهم ، بل في فترات استجمامهم ومحطات ملاهيهم التي قد تتجاوز المألوف في نظر بعض المحافظين ، ووجود راهب ثالث في لقاءات المحاورين ومجتمعات الممارين يطالب حتى بالزواج المدني ، ووجود رابع في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية يعنى بمطالب العمّال ، ويمهّد لها بنفوذه ، ويسعى في تحقيق العدالة الاجتماعية الصحيحة، على استنكار ونفور من قبل بعض المسؤولين الكبار ديناً ودنياً.

وليس جديداً اهتمام اليسوعيين بالعمال . وهم يجمعون فريقاً منهم منذ السنة ١٨٦٠ ، تحت راية «الأم الحزينة» في اخوية اسّسها الاب فيوروفتش الشهير في حوليات القرن التاسع عشر ،مهتمة بوعظ الطبقات العاملة ، والعمل على تحسين حالتهم الروحية والمادية . وقد ارتقى مستوى هذه الاخوية حتى شملت ، الى العمال ، عدداً من المستخدمين والعاملين في حقلي الصناعة والتجارة . فانتقل بعض اليسوعيين الشباب الى حقل الكادحين المعدمين من الجماهير الطارئة على بيروت من جهات الجنوب ، وبعلبك ، والهرمل ، المحتشدة في منطقة الكرنتينا ، المزدحمة في ١٥٠٠ كوخ من التنك ، بمعدّل تسعة اشخاص في الكوخ الواحد . فهم يهتمون بايجاد عمل للقادرين منهم ، اهتمامهم بتهذيب اولادهم ، وتدريب بناتهم ، وتحسين مساكنهم ، والسهر على شؤونهم الصحية عامّة . وقد اوجدوا لهم المستوصف ، والمطعم ، والمدرسة ، والمشغل ، والنادي . ويقوم بعض آباء الكرنتينا بزيارة مواطن هؤلاء اللاجئين الاصلية ، حتى بلغ عملهم الاجتماعي قرية صفرا في البقاع الشمالي .

وما دمنا في خدمة العمّال فلنشر الى «مدرسة سيّدة العمال» في سدّ البوشرية وهي مؤسسة على مستوى رفيع تجمع بين التعليم الابتدائي ، والتدريب المهني ، والنشاط الاجتماعي .

هذا ، ولا يخفى ما يقوم به اليسوعيون في هذا المجال ايضاً ، منذ السنة ١٨٦٠ ، في مؤسستهم الشهيرة بتعنايل ، تلك الارض المستنقعة التي اضطرّت تركية العثمانية الى اعطائها لليسوعيين دية عن خمسة رهبان

استشهدوا في مذابح دير القمر وزحله ، وهم : الاب بيوته ، والاخوة بوناشينا ، ومقصود ، ويونس ، وحبيش . وقد كانت مجموعة من المستنقعات بين تعنايل وكساره ، لا يأهلها الا برغش الملاريا . ومن يقصد زيارتها اليوم فيشهد مزارعها وكرومها واصطبلاتها ، واهراءها ، ومخازن النبيذ فيها ، ويتعرّف الى ما يقوم به الآباء من اعمال اجتماعية وتهذيبية ، وروحية ، كالمستوصف ، والمدرسة المهنية ، والمدرسة التقنية للبنات ، وما يتبع ذلك من زيارة مدارس المنطقة بمساعدة راهبات القلبين الاقدسين ، والاهتمام بشؤون العمّال ، وتوعية المجتمع تربوياً وخلقياً الى الاشعاع الروحي، باقامة الفروض الدينية وارشاد الاخويات، واستقبال الكهنة والعلمانيين للرياضات الدورية ،من يشهد ذلك يقدر عمل اربعة اجيال من الاخوة اليسوعيين الكادحين في تحويل تلك المستنقعات الى مؤسسة نموذجية في العمل الاجتماعي الصحيح المرتكز على الزراعة الاصيلة في لبنان ، والصناعة الخاصة المتفرعة عنها .

في سورية

ان يكن نشاط اليسوعيين في سورية ، في رسالتهم الثانية ، لم يعدل نشاطهم في رسالتهم الأولى فيها ، ولا نشاطهم في لبنان على كل حال ، فالأمر لا يعوَد الى مطلق ارادتهم. فقد نزلوا دمشق منذ السنة ١٨٧٢ . وكانوا في السنة التالية في حلب . وأسّسوا مركزهم في حمص سنة ١٨٨٢ . وكان شأنهم واحداً في المدن الثلاث خدمة النفوس بالوعظ والارشاد ، وبانشاء المدارس ، ونشر التعليم في المدن والقرى . وهكذا كانوا يرتادون ، منطلقين من دمشق ، مناطق حوران ، ومرتفعات جبل الدروز . ومن حمص كانوا يشرفون على مدارسهم الابتدائية في «وادي النصارى» وجبل عكار . وقد تطوّرت مدرستهم في حمص حتى غدت كلية زاهرة . واما حلب فكاد ينحصر عملهم فيها بخدمة الشبيبة والاكليروس المحلي .

وكان تأميم المدارس الخاصة سنة ١٩٦٧ ، فقضى على الازدهار التعليمي في الرسالة دفعة واحدة . فانصرف اليسوعيون – وقد اصبح عددهم لا يتجاوز الاثني عشر – الى النشاط الروحي باعداد اساتذة علمانيين للتعليم المسيحي ، والى العمل الاجتماعي في ضواحي حمص ودمشق ، والى الاهتمام بالطلاّب بانشاء المكتبات ، والى مساعدة رجال الدين والراهبات .

في مصر

نزل اليسوعيون مصر سنة ١٨٧٩ ، تلبية لرغبة البابا لاون الثالث عشر الذي شاء مساعدة الاقباط الكاثوليك وعددهم اذ ذاك لا يتجاوز الخمسة الآف باشراف اثني عشر كاهناً – بانشاء مدرسة اكليريكية لسدّ حاجات الطائفة الناشئة .

ولم يلبث المشروع ان اتسع باتساع مجال العمل . واذا للآباء منذ السنة ١٨٨٢ ، كلية كبيرة في القاهرة «كلية العائلة المقدسة» ، خرجت افواجاً جمّة من كبار المسؤولين في مصر ، على مختلف العهود . ولا تزال حتى اليوم ، على رغم ما اصابها من صعوبات هذه السنوات الاخيرة ، تنعم بثقة السلطة والأهلين . اما كلية الاسكندرية التي عاشت مزدهرة في ما بين السنتين ١٨٨٤ و ١٩٢٠ ، فقد استبدل بها عدد من المنشآت الناجعة في تسهيل الدروس على الطلاب الجامعيين كالمكتبات والمختبرات ، وغرف الدرس ، واندية الحوار ، والمباحثة مع الاهتمام بمزيد ثقافة للذين يستعدّون لمهنة التعليم في مواد اللغات الاجنبية والعلوم خاصة ، اذ ان القوانين المصرية تحظّر على المسيحيين تدريس اللغة العربية .

وهناك عشرات المدارس الابتدائية المنتشرة في الصعيد . واهمها مركز المنية المنشأ سنة ١٨٨٧ ، والذي كان طيب الأثر ، وافر الثمر ، في ارتداد الالوف من الاقباط الى الكثلكة ، على رغم ما اكتنف حياة اليسوعيين من صعوبات المناخ ، وانعدام وسائل المعيشة حتى البسيطة منها .

بيد ان هذه المدارس اصبحت اليوم في عهدة «الجمعية الكاثوليكية للمدارس في مصر» التي انشأها الاب عيروط راغباً في دفع الميسورين من المصريين الى مساعدة اخوانهم الفقراء المهملين في الأرياف . وظل باشراف اليسوعيين المدرسة الابتدائية العالية في المنية ، منصرفين الى الوعظ والارشاد ، وزيارة كهنة الرعايا المنتشرة على ضفة النيل بطولها .

وقد كان لهم رعية نموذجية في قراقوص قرب الأقصر ، بمدرستها ، ومستوصفها ، ومعمل للخزف ، وآخر للسجاد . فسلّموا الجميع للبطريركية الكاثوليكية سنة ١٩٦٧. كما سلّموها كذلك ادارة اكليريكية معادي سنة ١٩٦٩ .

رسالة ارمينية

وهذه الرسالة نشأت كذلك تلبية لرغبة البابا لاون الثالث عشر . فأسست في ثلاث سنوات (١٨٨١ – ١٨٨٣) خمسة اديرة : اماسية ، وقيسارية ، وقبادوقية ، ومرسيوان ، وسيواس ، وتوقات . ثم اضافت اليها دير ادنه ، مقرّاً في الاستانة لرئيس الرسالة .

ولم تلبث ان تعدّدت المدارس الابتدائية والثانوية ، للصبيان وللبنات ، وما يتبعها من منشآت ثقافية واجتماعية ، كالمستوصفات والمكتبات ، والأندية ، وما يكتنفها من اعمال الارشاد والوعظ ، والتبشير ، ومن حلقات الحوار ، والكتابات الجدلية المؤدية الى بعض الارتدادات ، والى الكثير من المناقشات مع الارمن الغريغوريين والبروتستان. هذا الى نشاط علمي صرف باشره اليسوعيون في بلاد الاناضول تاريخاً ، وفناً ، وآثاراً . ولن ينسى تاريخ ارمينية اثر الاب تورنبيز ، كما ان تركية الحديثة تستفيد اليوم سياحياً – كما يستفيد علمياً مؤرخو الآثار – من مكتشفات الاب غليوم دو جرفانيون في كنائس قبادوقية الغنية بالمنقوشات والرسوم .

وتهب عواصف الاضطهاد الديني على بلاد الأرمن فتسفر عن مذابح

أماسية ، وقيسارية ، ومرسيوان ، وسيواس سنة ١٨٩٧ ، وعن مذبحة توقات في السنة التالية ، ثم عن مذابح قيليقة سنة ١٩٠٩ ، وتحرق كلية ادنه ، حتى يكون الاعصار الهائل المستهدف شعباً بكامله سنة ١٩١٥ ، فتتراكم الضحايا بمئات الالوف . ويستشهد في تلك المجازر اثنان من اليسوعيين هما الابوان اغاجانيان وباليان .

وكان طبيعياً ان تلتحق الرسالة بالهاربين . فلجأت معهم الى سورية والى لبنان خاصة، ولاسيما بعد ان أعطيت تركية سنجق الاسكندرونة . فأقفل دير قرق خان الذي كان قد انشئ سنة ١٩٣٠ ، كما أقفلت في ما بعد مدرسة سان ورتان في حلب ، مع غيرها من المدارس الكاثوليكية في سوريـــة .

ولم يبق من آثار تلك الحياة الثقافية الدينية المزدهرة سابقاً في بلاد ارمينية سوى مدرسة القديس غريغوريوس في بيروت ، ومنبر الدراسات الارمنية الذي أنشأه الاب مصيريان في معهد الآداب الشرقية من جامعة القديس يوسف .

النظـــام الاداري

تعلقت رسالة اليسوعيين الثانية مباشرة بالرئيس العام منذ وصولها الى لبنان سنة ١٨٣١ حتى السنة ١٨٤٣ ، اذ ألحقت باقليم ليون الفرنسي . وكان فيها اذ ذاك ١٠ رهبان : ٦ ايطاليون ، وفرنسيان ، وألماني ، وبولوني .

وشهدت السنة ١٨٤٧ اول دعوة لبنانية في الرهبانية بشخص الاخ حبيب مقصود من زحلة الذي استشهد سنة ١٨٦٠ . اما اول كاهن يسوعي من بلاد الشرق فكان الاب عبد المسيح ستانيسلاس شيخو الكلداني المارديني — شقيق الاب لويس شيخو الشهير — الذي دخل الابتداء سنة ١٨٥٨ ، ورسم سنة ١٨٦٩ .

ونهض اقليم ليون بالرسالة فبلغ عدد اعضائها ١٢٠ راهباً ، سنة

١٨٨٠ ، منهم ٢٥ من البلاد الشرقية . وفي سنة ١٩١٤ كان عدد اليسوعيين في الشرق الادنى نحو ثلاثمائة منهم : ١٦٠ في لبنان وسورية ، ٧٢ في مصر ، ٥٧ في الرسالة الأرمينية . وهو عدد لم يبلغوه في ما بعد ، لما كان من اثر الحرب العالمية الاولى في منشآتهم جميعها . الا انها اخذت تنبعث شيئاً فشيئاً منذ السنة ١٩١٨ ، ما عدا رسالة ارمينية التي اشرنا الى مأساتها الدامية .

وفي سنة ١٩٣٧ ، أنشئت « رسالة الشرق الأدنى » جامعة كل اليسوعيين في هذه البلاد بادارة رئيس واحد . وبعد سنتين كوّنت هذه الرسالة « نيابة اقليمية » تابعة لليون . وكانت تعدّ ٢٢٠ راهباً، نحو نصفهم من الشرقيين .

وكانت الحرب العالمية الثانية وما تبعها من تطورات خرج منها لبنان وسورية ومصر وسائر انحاء الشرق الأدنى في اتجاهات مختلفة . فرأى الرئيس العام السابق ، الاب يانسن ، سنة ١٩٥٧ ، ان يجعل رسالة الشرق الأدنى اقليماً مستقلاً ، على ان ينظر في ما بعد ، في تفريعه الى مناطق مستقلة . وهو ما أقر بقرار وقّعه الاب أروبي ، الرئيس العام الحالي ، بتاريخ ٨ حزيران ١٩٦٨ . فغدا لكل من لبنان ، وسورية ، ومصر ، رئيس خاصّ تحت ادارة الرئيس الاقليمي .

بيد ان القضية الكبرى التي تواجه الرهبانية اليسوعية في الشرق الادنى ، كما في سائر البلاد ، انما هي قضية الدعوات . ذلك ان اقليم ليون السابق (واسمه اليوم اقليم البحر المتوسط) الذي كان يغذي رسالة الشرق الأدنى ، اتخذ على نفسه ، منذ السنة ١٩٤٦ ، تأمين حاجات الرسالات في افريقية السوداء ومنها ابرشيتان في تشاد وحدها ، الى ثلاثة ديورة في الجزائر . مع العلم ان الدعوات في تناقص مستمرّ في جميع انحاء العالم .

وهو ما حدا بالاب يانسن، سنة ١٩٥٨ ، الى استرعاء انتباه يسوعيي هولاندة ، الى حاجات الشرق الادنى ، بعد ان اضطروا الى اقفال مراكزهم في اندونيسية . ولكن هذه المراكز اعيد فتحها اليوم . ثم

عصفت موجة من الرفض والمماراة في مسيحيي هولاندة . فغدا من الصعب الأمل بان يزداد عدد الخمسة والعشرين يسوعيّاً هولاندياً العاملين في لبنان وسورية ومصر .

هذا مع الاشارة الى ان الشيوخ يذهبون واحداً بعد واحد ، وان معدّل العمر على ارتفاع بين الـ ١٥٨ كاهناً من يسوعيي الشرق الادنى الذين لا يقابلهم الا ٢٧ طالباً اكليريكياً . ومن الخمسة والعشرين اخاً اربعة فقط ينقص عمرهم عن الخمسين .

من هنا كان النداء الملح الموجّه الى كاثوليك مصر وسورية ، ولا سيما لبنان ، بان يتخذوا مسؤولياتهم تجاه هذه الحالة . فقد انقضى زمن الاتكال على الغرباء في القيام بالواجب .